اجاثا كريستي



بيت الأحلام

أجاثا كريستي

{1976 - 1890}

-الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

- بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

- كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا، تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديّون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

بيت الأحلام

While the Light Lasts and Other Stories

في هذا الكتاب نقدم لك - عزيزي القارئ - تسع قصص قصيرة تناولتها الكاتبة الإنجليزية «أجاثا كريستي» بأسلوبها السهل الممتع وهي: بيت الأحلام - الممثلة- نقطة اللارجوع - مصادفة في عيد الميلاد المجيد - الإله المنفرد - ذهب جزيرة «مان»- داخل الجدار - سر خزانة «بغداد» الغامض - طالما يضيء النهار.

لكل منها عنوان يلائم محتواها، تمتع كل من يقرؤها، وتعتبر من أروع إبداعات «أجاثا كريستي» التي تميَّزت بسلاسة الأسلوب وسهولة العبارة وقد أعطت لكل شخصية دورها المناسب .

ندعوك - عزيزي القارئ - إلى الاستمتاع بقراءتها ومتابعة أحداثها المثيرة وشخصياتها المتميزة؛ حيث لكل قصة منها عقدتها الخاصة ولغزها المحير.

ثمن الكتاب

لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	100 ل.س.	عُمان	1.5 ريال
الأردن	2 دينار	مصر	10 جنيهات
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	5 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	اليمن	400 ريال

ISBN 995338243-3

9 789953 382432

بيت الأحلام

بونارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرّبة

بيت الأحلام

(08)

تاليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

"**دار ميوزيك**" للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

ص.ب **374** جونيه – لبنان

www.inter-press.org Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي – دار البشير

تأليف
Agatha Christie

الاسم الأصلي للكتاب
While The Light Lasts and other stories

الغلاف بريشة الفنان العالمي
عبد العال

- 5 -

بيت الأحلام

شخصيات الرواية:

- "**جون سيجراف**": بطل القصة.
- "**رودولف ويترمان**": رجل أعمال.
- "**ميزي ويترمان**": الابنة الوحيدة لرجل الأعمال "**رودولف ويترمان**".
- "**آليجرا كير**": صديقة "**ميزي**".

إليكم قصة "**جون سيجراف**".. عن حياته التي لم تكن مرضية قط وعن غرامياته التي تركته دون أن ترويه أو تشبعه وعن أحلامه وعن وفاته.. وإذا كان قد وجد في آخر مجالين ما لم يجده في المجالين الآخرين فربما يمكن اعتبار حياته نجاحًا ومن يدري؟

كان "**جون سيجراف**" نابعًا من أسرة كانت قد افتقرت خلال القرن الأخير. كان أفرادها من كبار الملاك والممولين في عهد الملكة "**إليزابيث**" الأولى، ولقد تم بيع آخر أملاكهم، وفجأة وجدوا أنه جدير بأحد الأبناء على الأقل أن يتعلم السيطرة على الفن والمال، وإن كان ذلك من الصعب على أية حال. للأسف، وقع الاختيار على "**جون**" سواء كان ذلك عن مصادفة أو سخرية القدر. كان أشبه بالدابة الوحشية الوافدة من الغابة ولم يكن من اللائق أن يكون هو تلك الضحية التي ستذبح على مذبح المال. وكان كل ما يرفع من شأن "**جون سيجراف**" هو رائحة الملح، وطعم ملح البحر على شفتيه، والسماء بلا حدود فوق رأسه، وكان لابد له من وداع كل ذلك.

في الثامنة عشرة من عمره دخل أحد المشاريع التجارية الضخمة بصفة حامل أمر الشراء، ولم يتطور موقفه في العمل خلال السنوات السبع التي قضاها في هذا العمل.. وكانت لديه قدرة على القيام بأدق الأعمال؛ لأنه كان جادًا واقعيًا شغالاً

ومجتهداً... لم يكن له عمل سوى كلاسيكية عمل المكتب فقط.

مع ذلك كان في إمكانه أن يصبح... ماذا؟ ولما كان عاجزاً عن الإجابة بنفسه عن السؤال كانت تسيطر عليه فكرة وجود حياة في أيّ مكان آخر ربما يستطيع... الاعتماد عليها. كان يتمتع بقدرة ورؤية للأمور كانت تدهش زملاءه في العمل. كانوا يحبونه، وكان كل منهم يقدره لما له من مظهر عدم الاهتمام، ولم يكن ليتحقق من أن مثل هذا المظهر يلغيهم من روح الأصدقاء المقربين إليه.

وفجأة أتاه الحلم. كان قد أتاه ذات صباح واستيقظ منه فزعًا، مقاومًا لكي يحتفظ به بينما كان هذا الحلم يحاول الإفلات من بين أصابعه كما يحدث للأحلام. عبثًا حاول التشبث به. كان لا ينبغي أن يذهب هذا الحلم.... كان لا ينبغي.... كان لابد له أن يتذكر المنزل. كان المنزل بالتأكيد هو المنزل الذي كان يعرفه جيداً. هل كان منزلاً حقيقيًّا أو أنه لم تسبق له رؤيته إلا في الحلم؟ لأنه كان لا يتذكره... لكنه بالتأكيد كان يعرفه... كان يعرفه جيداً. ثم بدأت أول أضواء الفجر تدخل الحجرة. كان الهدوء خارقًا للطبيعة.

في الرابعة والنصف صباحًا كانت الشمس تغمر "**لندن**"، وكانت هذه المدينة تنعم بلحظة سكون. هكذا مكث "**جون سيجراف**" في مكانه دون أن يتحرك، ينعم بالسرور ويغرق في الإعجاب بجمال حلمه الإلهي. عادة تهرب الأحلام منك في الوقت الذي تبدأ يقظتك لكنه كان قد تمكن من الاحتفاظ بحلمه قبل أن يفلت منه، كان حقًّا حلمًا فريداً من نوعه، واضحًا. كان فيه المنزل و... فجأة انقطع حبل أفكاره ولم يبق سوى المنزل الذي يتذكره وليس سواه. ثم فجأة أيضاً– وقد شعر بخيبة الأمل – اكتشف أن هذا المنزل مجهول عنده ولم يسبق له أن حلم به.

كان منزلاً أبيض، مشيداً على أرض مرتفعة، كانت تحيط به الأشجار كما كانت هناك هضاب زرقاء صغيرة تشاهد في الأفق البعيد. لكن سحره الفريد من نوعه لم يكن مرتبطًا بالبيئة المحيطة به؛ لأنه... وهنا نلمس أساس هذا الحلم... كان منزلاً جميلاً من أندر ما يمكن؛ يخفق له قلبه كلما تذكر جماله. هكذا كان يصفه بناء على ما يشاهد في واجهته؛ لأنه لم يدخله.

بعد ذلك عندما وضحت أمامه – مع تقدم النهار – أبعاد حجرة الصالون البائسة شعر بما يلحق بكل من يستيقظ من حلم... ربما لم يكن حلمه رائعًا إلى هذا الحد، أو أن التفاصيل هربت من بين أصابعه المتقلصة؟ مع ذلك تذكر أن المنزل كبير ذو عدد هائل من النوافذ وجميع الستائر كانت منسدلة، ليس لأن الناس غير موجودين... كان واثقًا بذلك، وإنما لأنها كانت ساعة مبكرة ولم يستيقظوا بعد.

ثم سخر من غباء هذه الأفكار، وتذكر أنه ينبغي أن يتناول العشاء عند السيد "**ويترمان**" في تلك الأمسية.

كانت "**ميزي ويترمان**"، الابنة الوحيدة لـ"**رودولف ويترمان**"، قد اعتادت– طوال حياتها – الحصول على كل ما ترغب فيه.. كانت في أثناء قضائها يومًا في مكتب والدها قد رأت "**جون سيجراف**" عندما دخل المكتب لتقديم بعض الخطابات التي طلبها منه رئيسه. وكانت – فور خروج هذا الشاب من مكتب والدها – قد طالبت بكم من المعلومات عنه لم يبخل والدها عن منحها إياها.

كان أحد أبناء السيد "**إدوارد سيجراف**"، وهي أسرة قديمة لكن في أحلك حالات البؤس. لا شك في أنه لن يستجيب لأية رغبة من رغباتها ومع ذلك أحبته.

بعد خمسة عشر يومًا أقنعت والدها بدعوة "**جون سيجراف**" إلى العشاء، سيكون عشاءً وديًا يقتصر على: والدها وهي و"**جون سيجراف**" ومعهم صديقة قد استضافتها حديثًا. هذه الصديقة نطقت بهذا التعليق الذي عجزت عن كتمانه قائلة:

– إنه الاختيار يا "**ميزي**" على ما أعتقد؟ بعد قليل سوف يلفه والدك في ورق هدايا ويحضره إلى المنزل لكي يضعه تحت قدمي ابنته المحبوبة.

– "**آليجرا**". ستظلين دائمًا سريعة في تعجل الأحداث. حينئذ انطلقت "**آليجرا**" في الضحك قائلة:

– إنك رائعة بميولك هذه يا "**ميزي**". إني معجبة بهذه القبعة... إنها تلزمني، وإذا كان هكذا بالنسبة إلى القبعات فلمَ لا بالنسبة إلى الأزواج؟

– لا تكوني ساخرة. حتى الآن أنا بالكاد وجهت له بعض الكلمات.

– اتفقنا. وهذا لا يمنع من أن اختيارك وقع عليه. ما رأيك فيه يا "**ميزي**"؟

أجابت "**ميزي ويترمان**" ببطء:

– لست أدري. إنما هو مختلف.

– مختلف؟

– نعم. قد أعجز عن وصفه. إنه شاب جميل بطريقته... لكن لديه طريقة بألا يراك. صدقيني، إني لست واثقة بأنه حول نظره إليّ، عندما كنت في مكتب والدي. عادت "**آليجرا**" للضحك:

– إنه حذق. وأعتقد أن هذا الشاب ليس مجنونًا.

– إني أمقتك يا "**آليجرا**".

– سوف يشتري الوالد دبًّا من القطيفة لطيفًا لـ"**ميزي**" العزيزة.

– أنا لا أحب أن يتم الأمر على هذا النحو.

– إنك تفضلين الحب الكبير. أليس كذلك؟

– ولم لا يقع في هواي؟

– لا مبرر لذلك. لكن أراهنك على أنه سيكون هكذا. قالت "**آليجرا**" ذلك وهي تبتسم وتتفحص صديقتها. كانت "**ميزي ويترمان**" قد بدأت تتمتع بجسم ممتلئ. كان شعرها الكستنائي معقوصًا ومتموجًا في فن، وكانت بشرتها الجميلة بطبيعتها قد ازدادت حسنًا ببعض المساحيق. كما كان فمها جميلاً وأسنانها مصفوفة جيدًا، أما عيناها العسليتان – وإن كانتا صغيرتين – فإنهما كانتا ذواتي بريق جذاب، وفوق كل ذلك كانت في أبهى هندام. ما إن أنهت "**آليجرا**" فحصها حتى قالت:

– نعم أنا لا أشك لحظة واحدة في أنه سيقوم بذلك. إن "**ميزي**" بالإجماع رائعة. ألقت إليها صديقتها نظرة ارتياب فأكدت لها "**آليجرا**":

– بلى بلى، أقسم بشرفي. وإذا فرضنا – مجرد فرض – أنه لم يقع في هواك فليكن. لكن تخيلي أن ميله إليك سيكون صادقًا.

– ومن الممكن ألا يعجبني بالمرة عندما أعرفه أكثر من قرب.

– بالضبط. من جانب آخر قد يزداد إعجابك به أكثر. وفي هذه الحالة الأخيرة...

هزت "**ميزي**" كتفيها:

– إني أتفاخر بأني أتمتع بمزيد من الكبرياء.

– الكبرياء تنفع الشخص عند إخفاء مشاعره... لكنه لا يكتمها... حينئذ فزعت "**ميزي**" وقد علت الحمرة وجنتيها:

– آه، مع كل، إني أرى أني صفقة رابحة بالنسبة إليه. أقصد هكذا أبدو له من وجهة نظره... ابنة وحيدة لوالدي هذا ما أراه.

– نعم يا "**ميزي**" (هكذا قالت "**آليجرا**" مبدية موافقتها على هذا الرأي) صديقة أو رفيقة من إحدى وجهات النظر. لكنك الابنة الوحيدة لوالدك بكل ما لك من مميزات. وأنا لا أحب شيئًا بقدر أن أرى أصدقائي يقبل بعضهم بعضًا لشخصهم. كانت لهجتها الساخرة بعض الشيء قد ضايقت "**ميزي**" فقالت:

– إنك جريئة يا "**آليجرا**".

– لكنني نافعة في التشجيع. من أجل ذلك إنك تستضيفينني، إني أدرس التاريخ، وأنت تعلمين ذلك، وكثيرًا ما تساءلت عن وجود مهرجين في القصر والحال أنهم مقبولون بل وينالون كل تشجيع. وهأنذي أصبحت منهم. إنه دور جميل إلى حد كبير. كان ينبغي أن أعمل شيئًا. كنت هناك، متعاظمة ومن أصل طيب وقليلة التهذيب. ""**آدكونك**"، ما العمل يا بنتي؟ الله يعلم. هكذا أجابت". كانت هذه القريبة القانعة بحجرة أعلى المنزل عديمة التدفئة ترضى بأقل القليل من الطعام كانت "تعاون ابنة العم العزيزة "**ماشيتشوز**""، وإن لم يكن ذلك شائعًا كثيرًا بين الناس، ما عدا أولئك الذين لم يعد عندهم أجور خدمهم ومن عوملوا مثل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة [1].

حينئذ، عملت مهرِّجة قصر و–بما لديَّ من شدة ملاحظة – تمكنت من معرفة الطبيعة البشرية. إن الناس لا يكرهون أن نذكرهم إلى حد أنهم حقًّا بشعون مقززون؛ لذلك كانوا يجمعون المبشرين. فكان ذلك نجاحًا. وهأنذي أتقبل الدعوات. وفي إمكاني أن أحيا بارتياح على حساب أصدقائي، وأن أحرص على عدم إظهار شكري لهم.

– لا يوجد اثنان مثلك يا "**آليجرا**". إنك لا تعين ما تقولين.

---

(1) "**آليجرا**" فتاة مختلفة تحب أن تقتبس كلامها من المسرحيات والروايات المختلفة.

- هنا أقول لك لقد أخطأت. إني أدرك جيداً كل كلمة بل وكل حرف من الكلمة التي أتفوه بها. كما أني أفكر جيداً فيما سأنطق به. أما صراحتي الواضحة هذه فهي يا بنيتي محسوبة تماماً ووجب عليّ أن أعلم كيف أبدو حذرة وينبغي أن يلازمني هذا العمل المأجور حتى الشيخوخة.

- لماذا لم تتزوجي؟! لقد نسيت عدد من تقدموا إليك ويرغبون بصدق في الزواج بك. فجأة عبس وجه "**آليجرا**":

- لن أستطيع أبداً أن أتزوج.

- لأن... ولم تنه "**ميزي**" كلامها إذ توقفت لكي تنظر إلى صديقتها التي أبدت الموافقة بقيامها بحك رأسها. وإذا بصوت أقدام يُسمع على السلم. فتح كبير الخدم الباب معلناً:

- السيد "**سيجراف**". دخل "**جون**" دون أي حماس؛ لأنه لا يرى مبرراً لدعوة هذا العجوز المتزمت، ولو كان قد تمكن من التخلص من هذه الدعوة لفعل. أقبلت إليه فتاة وصافحته. تذكر أنه سبق أن رآها في مكتب والدها.

- كيف حالك يا سيد "**سيجراف**"؟ أقدم إليك: السيد "**سيجراف**"... الآنسة "**كير**". هنا تنبه. من هي؟ من أين تأتي؟

كانت مخلوقة عابرة بما ترتديه من ملابس جميلة فضفاضة وما يكلل رأسها ويبرز ملامحها اليونانية. وكأنها في الخيال. دخل "**رودولف ويترمان**"، ودون أي مظاهر احتفال أو كلمات مجاملة دخلا حجرة الطعام.

حينئذ كلمت "**آليجرا كير**" الذي يستضيفها فاضطر "**جون سيجراف**" إلى أن يوجه كلماته إلى "**ميزي**" منفرداً بها، ومع ذلك كان كل تفكيره في الفتاة الجالسة في الجهة المقابلة؛ فقد انجذب لها. أخيراً جاءت فرصة التحدث معها؛ إذ كانت "**ميزي**" تنقل في هذه الأثناء رسالة إلى والدها عن علاقة كانت قد صادفتها في فترة ما بعد ظهر اليوم نفسه. والآن وقد واتته الفرصة انعقد حلقه إلا أن عينيه كانتا تعبران عن مشاعره بصمت. فكان أنها أعلنت وقتئذ بصوت خافت:

- إلى الطريق؛ إلى أحاديث المائدة. فلنبدأ مثلاً بـ"أتحب"؟ حينئذ انطلق "**جون**" في الضحك.

– وإذا اكتشفنا أن كلاً منا يحب الكلاب ويكره القطط الحمراء فهنا نسجل نقطة مشتركة بيننا.

– بلا أيّ اعتراض .. أعلنت "**آليجرا**" .

– بحسب رأيي خسارة أن نبدأ بدرس دين.

– وإن كان ذلك سيكون من الحديث الذي يرضي الجميع.

– بالضبط، لكن مع نتائج غير مرضية.

– قد تفيد معرفة القواعد... على الأقل حتى لا تحدث مخالفة لها. حينئذ أعلن "**جون**" مبتسماً:

– أتوقع أنك أنت وإياي سنكشف عن خوفنا المشترك. بحركة لا إرادية، ارتطمت يد الفتاة بكوب شراب وأوقعته على الأرض، وسمع رنين الكريستال المتحطم على الأرض. فتوقفت "**ميزي**" ووالدها عن الكلام.

– إني متضايقة يا سيد "**ويترمان**" . وهأنذي قد أسقطت كوباً على الأرض.

– لا أهمية لذلك يا عزيزتي "**آليجرا**" . وتمتم "**جون سيجراف**" :

– كوب يكسر. هذا نذير شر. أتمنى ألا يحدث ذلك.

– لا تقلق. كيف يحدث ذلك بالضبط؟ "بالنسبة إلى الشر إنك لا تستطيع إدخاله على المكان الذي هو مكان للشر" .

ثم التفتت من جديد نحو "**ويترمان**" . و"**جون**" ؛ إذ عاد إلى حديثه مع "**ميزي**" حاول تحديد الموقف. ولقد توصل إلى ذلك. كان ذلك بشأن كلمات "**سيجلند**" في الفصل الأول من "**ولكيري**" ، عندما اقترحت "**سيجموند**" مغادرة المنزل.

"هل كانت تقصد بذلك أن...؟" . هكذا فكر.

بينما كانت "**ميزي**" تسأل عن رأيه في آخر مجلة ظهرت في "**لندن**" ، قد صارحها بأنه يعشق الموسيقى، فوعدته "**ميزي**" :

– سنطلب بعد العشاء من "**آليجرا**" أن تعزف لنا على البيان.

توجهوا معاً إلى الصالون. كان يحب الشراب الذي يُقدم إليه وكذلك السيجار. كان لا يعرف ما قد يستطيع قوله لـ"**سيجراف**" ، وطلبت "**ميزي**" من "**آليجرا كير**" أن تعزف لهما إحدى المقطوعات؛ حتى تساعد على انقضاء السهرة بسرعة.

كان هذا الأبله لا يهتم حتى بلعب الورق. كانت "**آليجرا**" تجيد العزف فقدمت من الموسيقى الحديثة Strrauss Debussy وقليلاً من Sevibine ومن بعدها انتقلت إلى موسيقى "**بيتهوفن**" الحزينة وقرب النهاية اضطربت أصابعها وتوقفت مرة واحدة.. ثم ألقت نظرة إلى "**ميزي**" وهي تبتسم، قالت:

- هل ترين أنهم لن يدعوني أعزف؟

ثم - قبل انتظار أيّ تعليق - عادت إلى العزف. عزفت مقطوعة ذات إيقاعات غريبة ربما أن "**سيجراف**" لم يسبق له سماعها حتى الآن. كانت موسيقى خفيفة رقيقة أشبه بتحليق عصفور في الجو...

ثم فجأة توقفت "**آليجرا**" وقامت من أمام البيان وهي تضحك. على الرغم من ضحكها هذا كانت تبدو مضطربة وتقريبًا فزعة. ثم جلست بجوار "**ميزي**" و"**جون**" وسمعت هذه الأخيرة تهمس إليها:

- كان لا ينبغي أن تقومي بعزف هذه المقطوعة.

- ماذا كانت المقطوعة الموسيقية الأخيرة؟ كان "**جون**" يريد معرفة ذلك بأيّ ثمن.

- كانت من تأليفي، هكذا قالت بلهجة جافة. فعمل "**ويترمان**" على تحويل مجرى الحديث. وكانت هذه هي الليلة الثانية التي حلم فيها "**جون سيجراف**" بالمنزل.

كان "**جون**" تعيسًا؛ إذ كان متأثرًا بماضيه. كان قد تقبل حياته هذه بمزيد من الارتياح. حقًّا كان ذلك قسراً لكنه لم يؤثر في حريته الداخلية. فقط الآن، قد تغير كل شيء. لقد تداخل العالم الخارجي والداخلي معًا.

أما عن سبب هذا الاضطراب، فلم يكن مخفيًّا عن ذاته. لقد أحب "**آليجرا كير**" من أول نظرة. وهو حائر كيف سيتصرف في ذلك الأمر؟

وعلى الرغم من تعلقه بها لم يسعَ إلى لقائها ولو مرة. وعندما دعته "**ميزي**" إلى قضاء إجازة نهاية الأسبوع عند والدها في الريف، كان قد توجه إلى هناك وهو يكاد يطير من الفرح. إلا أنه قد خاب أمله؛ لأن "**آليجرا**" ليست موجودة. ولقد ذكرها أمام "**ميزي**" التي أخبرته بأنها ذهبت لزيارة شخص ما في "**اسكتلندا**".

توقف عند هذا الحد، كان يتمنى لو أنه واصل الحديث عنها، لكن يبدو أن الكلمات توقفت في حلقه.

في أثناء هذه الفترة، تساءلت "**ميزي**" كثيراً عنه. يبدو أنه كان لا يلاحظ... ما كان يسهل ملاحظته. والحال أنها كانت فتاة متحفظة وغير ملتوية في تقربها، إلا أنها كانت متحررة أكثر مع "**جون**". كان يجدها آية في اللطف؛ لكنها مقتحمة. في حين أن القدر كان له اتجاه آخر يختلف عما لـ"**ميزي**"؛ إذ كان يعمل على لقاء "**جون**" بـ"**آليجرا**" مرة أخرى.

تقابلا ذات أحد في فترة ما بعد الظهر في الحديقة. كان قد لمحها عن بعد وخفق لها قلبه وقتئذ. ليتها تتذكره. وفعلاً لم تغفل عنه. توقفت وتحدثت معه وبعد دقائق سارا جنبا إلى جنب خلال مسطحات الخضرة وهما ينعمان بالسعادة. وفجأة سألها:

– هل تعتقدين في الأحلام؟

– إني أعتقد في الكوابيس. اقشعر عند سماع صوتها الأجش. وكرر دهشاً:

– في الكوابيس، أنا لم أتكلم عن كوابيس. تفرست فيه "**آليجرا**" وقالت:

– لا، لم يكن في حياتك كوابيس قط. وفجأة، أصبحت نبرة صوتها وديعة...

لقد سرد لها إذاً حلمه عن المنزل الأبيض. ها هو الحلم تكرر حتى الآن ست مرات... لا بل سبعة وكان دائمًا على الحال نفسه، كان منزلاً جميلاً جداً... حقًّا كم كان جميلاً! ثم واصل:

– يجب أن يُشاهد... بطريقة معينة. أن يُشاهد معك. لقد شاهدته للمرة الأولى ليلة اليوم الذي تم فيه تعارفنا.

– معي أنا؟ انصرفت وعلى محياها ابتسامة صغيرة وأطلقت ضحكة خاطفة كلها مرارة:

– آه! لا هذا مستحيل. المنزل كان جميلاً جداً.

– وأنت أيضًا. هكذا تمتم "**جون سيجراف**". شعرت "**آليجرا**" بالحرج وعلت الحمرة وجهها قليلاً:

– آسفة. لقد ظهرت في غاية الغباء. كان ينبغي أن أظهر لك أني أسعى إلى

الحصول على بعض عبارات المديح، أليس كذلك؟ لكن كان ذلك بعيداً عن ذهني. وأعلم – وأنا على يقين – أن مظهري الخارجي أو ما أبدو عليه ليس سيئًا. أردف "**جون**":

– أنا لم أتواجد حتى الآن داخل المنزل، لكنني أعلم أنه عندما يتم ذلك سيكون داخله أروع وأبهى مما هو عليه في الخارج. كان يتحدث ببطء جاعلاً لنبراته معنى، عملت طوعًا على تجاهلها.

– هناك شيء آخر أريد أن أقوله لكِ... إذا وعدتني بالاستماع.

– سأصغي إليك. هكذا وعدته "**آليجرا**".

– أنا حاليًا أفكر في تحسين موقعي. لقد اكتفيت حتى الآن بالبقاء في حياة التراخي وفي الحياة بمفردي. إن من واجب الرجل أن يكمل ذاته؛ لذلك قررت القيام بمشروع مختلف تمامًا عن عملي؛ ألا وهو الذهاب إلى "**إفريقيا**"... ولا أستطيع موافاتك بالتفاصيل التي يجب الاحتفاظ بسريتها.. لكن إذا نجح هذا المشروع... فسأصبح رجلاً ثريًا.

– إذًا أنت أيضًا تقيس النجاح بنسبة المال؟ أجاب "**جون سيجراف**":

– المال بالنسبة إليَّ لا يعني سوى شيء واحد... أنت! عندما سأعود... ثم توقف. حينئذ خفضت رأسها، وبدا وجهها شاحبًا.

– أنا لا أرغب في ادعاء أني لم أفهم جيداً؛ لذلك وجدت هنا الفرصة لكي أعلن لك الآن وهي المرة الأولى والأخيرة: لن أتزوج أبداً. بعد التفكير لحظة في هذا الرد، سألها في منتهى الوداعة:

– وهل في إمكانك إحاطتي بالسبب؟

– قد يكون من الممكن، لكنني أرفض الإدلاء به. مرة أخرى صمت لحظة، ثم رفع عينيه وابتسامة ساحرة تضيء وجهه.

– بذلك. إنك لا تدعينني أدخل إلى المنزل... ولا لثانية. وبالكاد إلقاء نظرة خاطفة؟ الستائر ستظل منسدلة. فما كان من "**آليجرا**" إلا أن مالت عليه ووضعت يدها على يده:

– سأصارحك بذلك أيضًا.. أنت تحلم بمنزلك... لكنني أنا لا أحلم، إن أحلامي

كوابيس. قالت ذلك وتركته بسرعة، تاركة إياه مرتبكًا.

في هذه الليلة حلم مرة أخرى... كان قد تيقن أن المنزل مسكون (مشغول) وكان قد رأى يداً تزيح الستائر ولمح شخصاً (مجرد شبح) يتحرك في الداخل.

وفي تلك الليلة كان المنزل قد بدا له أجمل مما سبق أن رآه. كانت جدرانه البيضاء تلمع في ضوء الشمس. المكان يوحي بالجمال والسلام.

فجأة – بين مؤشرات السرور التي كانت تحيط به – بدا مؤشراً أقوى. أحدهم بدا في النافذة. كان يعرفه واليد التي سبق وعرفها أزاحت الستر. سوف يرى خلال ثانية... لقد استيقظ... وهو يرتجف من بشاعة المنظر وهذا التقزز الذي لا يعرف له مبرراً عندما يذكر هذا الشيء الذي تصدى له من نافذة المنزل.

كان هذا الشيء بشعًا ومنفراً ومجرد التفكير فيه يكدره، ثم تحقق أن بشاعة هذا الشيء مرتبطة بوجوده في هذا المنزل، منزل الجمال، وحيث يقيم هذا الشيء كانت البشاعة تنشأ فوراً. البشاعة التي لا تقف عند حد وتعمل على القضاء على الجمال والسلام المميزين لهذا المنزل. وإذا بجمال المنزل يزول؛ لأن بين جدرانه المباركة المقدسة يلبد هذا الشيء النجس.

كان "**سيجراف**" يعلم أنه إذا حدث وحلم ثانية بالمنزل فسوف يستيقظ في الحال فزعًا لمجرد فكرة أن هذا الشيء المختفي خلف هذا البياض وهذا الجمال قد يعود فجأة ويتحداه بنظراته.

في صباح اليوم التالي – عندما غادر مكتبه – توجه فوراً إلى آل "**ويترمان**"، كان لابد له أن يرى "**آليجرا كير**". "**ميزي**" هي التي ستدله على المكان الذي يجدها فيه. عندما أقبلت إليه وقبل أن تسحب يدها من يده عند مصافحتها له، قال:

– لقد تقابلت مع الآنسة "**كير**" بالأمس ولا أعرف عنوان مسكنها. لم يلاحظ أن يد الفتاة "**ميزي**" أصبحت فجأة رخوة في يده قبل أن تسحبها ولا ما كان باديًا على صوتها من برود.

– "**آليجرا**" هنا... إنها تسكن عندنا. غير أني أخشى من أنك لن تتمكن من التحدث معها.

– لكن...

– لقد توفيت والدتها صباح اليوم. لقد وصلنا الخبر حالاً.

– آه! هكذا أبدى دهشة وضياع الفرصة منه. ثم جاء تعليق "**ميزي**":

– أمر مؤسف. لقد ماتت في مستشفى أمراض عقلية. إن عدد حالات الجنون يتزايد يومًا بعد يوم في أسرتها: لقد أطلق جدها الرصاص على رأسه، وإحدى عماتها ألقت بنفسها في الماء، والأخرى معتوهة. حينئذ أطلق "**جون سيجراف**" أنينًا. ثم قالت "**ميزي**" مدافعة عن نفسها:

– لقد شعرت بأني مضطرة إلى موافاتك بصحة الأمور لما بيننا من صداقة عميقة أليس كذلك؟ ولا شك في أن "**آليجرا**" هي الإغراء بل الجاذبية كلها وكثيرون طلبوا يدها. لكن بداهة لن تتزوج. بيني وبينك كيف يمكنها ذلك؟ تمتم "**سيجراف**":

– بالنسبة إليها. لا يبدو عليها شيء من هذه الأعراض. شعر "**سيجراف**" بأن صوته أجش وغير طبيعي.

– هذا المرض لا يظهر ولا يعرف. كانت والدتها المتوفاة في غاية الاتزان والتعقل في شبابها، لكن فيما بعد، أصبحت فجأة... غريبة الأطوار. لقد أصبحت مجنونة بوضوح، وقانا الله شر هذا الداء الفظيع: الجنون.

– نعم. هكذا أبدى "**سيجراف**" تأييده للكلام. إنه أمر فظيع، لقد علم الآن ما هو هذا الشيء الذي كان يتطلع إليه من النافذة، وبينما كانت "**ميزي**" تواصل كلامها قاطعها فجأة بقوله:

– في الواقع، إذا كنت قد حضرت فإنما لكي أقول لك إلى اللقاء... ولكي أشكر لك لطفك.

– أليست لديك نية... السفر؟ وكان القلق باديًا في نبرة صوتها. أبدى "**سيجراف**" ابتسامة ضعيفة وأجاب مؤكداً:

– بلى، إلى "**إفريقيا**".

– "**إفريقيا**"!

وفي أثناء ما كانت "**ميزي**" تكرر هذه الكلمة دهشة صافحها وانصرف،

فمكثت في مكانها وأظافرها في كفيها ووجنتاها تعلوهما الحمرة من الفزع. عند عتبة المنزل، تواجد "**جون سيجراف**" وجها لوجه مع "**آليجرا**" التي كانت عائدة إلى منزل آل "**ويترمان**" . كانت ترتدي ملابس الحداد السوداء وكان وجهها شاحبًا. بعد نظرة فاحصة خاطفة اصطحبته إلى صالون صغير في الطابق الأرضي. قالت:

– "**ميزي**" أعلمتك. هل علمت؟ حكّ رأسه، ثم أردف:

– لكن، بم يهم ذلك؟ بالنسبة إليك إنك لست مصابة بأيّ شيء من ذلك. إن البعض... البعض لا يلحق بهم شيء. ألقت إليه نظرة معبرة عن اليأس. كرر:

– ليست لديك أية مشكلة. تمتمت وهي تهمس تقريبًا:

– لا أدري... لا أدري. لقد أخبرتك عن أحلامي ثم عندما أعزف على البيان... أولئك يأتون ويسيطرون على يديّ.

كان "**جون**" ينظر إليها... خائفًا، وخلال لحظة في أثناء ما كانت تتكلم إذا بشيء يستخدم عينيها لكي ينظر إليه ثم اختفى في لمح البصر... لقد عرفه... إنه الشيء الذي كان ينظر إليه في المنزل. فاجأته في لحظة تراجعه. تمتمت:

– لقد رأيت جيدًا... لكنني كنت أفضل لو أن "**ميزي**" لم تخبرك بشيء؛ لأن ذلك سوف ينزع منك كل شيء.

– كل شيء؟

– نعم، لن تبقى لك حتى الأحلام؛ لأنك الآن لن تجرؤ على الحلم بالمنزل.

كانت حرارة أشعة الشمس في "**إفريقيا**" الغربية حارقة جدًا.

– لقد عجزت عن العثور عليها، لقد عجزت... إلخ. هكذا كان "**جون سيجراف**" يردد وهو يئن. كان الطبيب البريطاني قد أمر مريضه بأن يصمت، وذلك لأنه كان قد تخصص في هذا المجال.

– إنه يقضي وقته في تكرار هذه الجملة. ما معنى ذلك؟

– أعتقد يا دكتور أنه يتكلم عن منزل.

كانت الأخت المتطوعة وهي من الإرسالية الكاثوليكية الرومانية وكانت هي أيضًا منحنية على الرجل فريسة هذه الخرافة – تكلمت بصوتها الرقيق معبرة عن حالته.

– أعتقد يا دكتور أنه يتكلم عن منزل.

– منزل، هيه؟ حسنًا يجب أن ينزع هذا من رأسه وبخلاف ذلك لن نتمكن من تخليصه من ذلك. إنها حالة وسواس أو تسلط فكرة عليه. "**سيجراف**"! "**سيجراف**"! بعد قليل نظر إلى وجه الطبيب إذ كان قد عرفه.

– اسمعني، إنك ستتخلص من ذلك. سأعمل على تخليصك منه، لكن لابد أنك ستعاني بشأن هذا المنزل. لن تبعد هذه الفكرة عنك بسرعة. إذًا لا تشغل بالك حاليًا بالبحث عنه.

– اتفقنا (كان المريض يبدو مستعدًا للخضوع للرأي) يخيل إلي أنه لا يمكن أن يختفي إن لم يتواجد قط هنا. صاح الطبيب قبل أن ينطلق في الضحك قائلاً:

– وكيف؟ الآن. قال هذا ثم انسحب.

أما "**سيجراف**" – وهو ممدد على فراشه – فقد عاد إلى التفكير، كانت درجة حرارة جسمه قد انخفضت في تلك اللحظة، فكان يفكر في وعيه؛ كان لابد من العثور على المنزل.

كان خلال عشر سنوات قد أصيب بالخوف بلا داعٍ لمجرد فكرة العثور عليه، والأمل بالعثور عليه بالمصادفة كان يجعله غارقًا في هوة الفزع. ثم.. ثم تذكره عندما هبطت مخاوفه، كان هو الذي أتى وعثر عليه. وتذكر وقتئذ بأدق التفاصيل ضيقه الشديد ثم فجأة طمأنينته؛ لأن في نهاية الأمر كان المنزل فارغًا.. فارغًا تمامًا وهادئًا، تمامًا كما كان يتذكره قبل ذلك بعشر سنوات. لم ينس. كانت عربة نقل الأثاث تبتعد ببطء عن المنزل، لا شك في أن المستأجر الأخير يخرج بكل أثاثه، كانت العربة سوداء وكذلك الخيول والرجال هم أيضًا كانوا يرتدون ملابس سوداء وبأيديهم قفازات سوداء... كان كل ذلك يذكر بشيء ما كان يعجز عن أن يتذكره. لا، إنه لم يخطئ. المستأجر الأخير كان يغادر المكان؛ لأن مدة عقد إيجاره قد انتهت، وسوف يظل المنزل خاليًا من الناس حتى عودة مالكه من الخارج، وعندما استيقظ كان لا يزال غارقًا في جو هدوء المنزل الفارغ وجماله.

بعد مرور شهر، كان قد تسلم خطابًا من "**ميزي**" (وكانت تكتب له بانتظام مرة في كل شهر). كانت تخبره فيه بوفاة "**آليجرا كير**" وأنها توفيت في المصحة

نفسها التي كانت توفيت فيها أمها. كان ذلك خبراً مؤسفًا، وفي الوقت نفسه سبَّب ارتياحًا شديداً.

كان خبراً غريبًا فعلاً، وأن يأتي هذا الخبر بعد حلم مثل ذلك. وإن كان لا يوحي بشيء، لكنه كان غريبًا فعلاً. لكن ما كان أسوأ من ذلك أنه ظل عاجزاً عن العثور على المنزل حتى ذلك الحين.. الله يعلم كيف أنه كان قد غفل عن الطريق.

إلى أعلى، إلى أعلى أكثر... كان قد انحدر! وكان لابد له من الصعود إلى أعلى ثانية. إلى أعلى، إلى أعلى أكثر فأكثر... وهكذا كانت الأيام تمر وكذلك الأسابيع... ولم يكن حتى واثقًا بأنها تمر. وكان يواصل الصعود...

ثم حدث أنه سمع ذات مرة صوت الطبيب. لكنه كان عاجزاً عن التوقف عن الصعود، مسألة أن يرهف السمع. هذا بالإضافة إلى أن الطبيب سوف يقول له أن يكف عن البحث عن المنزل. كان من جانبه يتصور أن المقصود منزل عادي، لكنه لم يكن هكذا.

ثم تذكر فجأة أن عليه أن يهدأ. لن يتمكن من العثور على المنزل إن لم يبدُ هادئًا. من المستحيل العثور على المنزل على عجل أو في حالة التوتر هذه. ليته فقط يستطيع البقاء ساكنًا؛ لكن كان الجو حارًّا جدًّا، حارًّا! لا بل بارداً. لم تكن الشواطئ التي كان عليه أن يصعدها صخرية، إنما مرتفعات جليدية.

كان متعبًا جدًّا. ما الداعي إلى البحث مادام لا فائدة من وراء ذلك... آه ها هو درب... لا شك في أنه أفضل من المرتفعات الجليدية. كم كان الظل مريحًا في هذا الدرب الضارب في الخضرة. وهذه الأشجار لم تكن فاخرة. كانت أشبه بـ... بماذا؟ عجز عن تذكر الكلمة... لكن لا أهمية لذلك...

آه، ثم كانت هناك أيضًا زهور صفراء وزرقاء.. كم كان هذا المنظر رائعًا وأيضًا مألوفًا... بداهة لقد كان قد حضر إلى هنا قبل ذلك. وهناك كان من خلال الأشجار يبدو المنزل المشيَّد على أرض مرتفعة. ياجمال المنزل وسط هذه الأشجار والزهور المحيطة به! أسرِع الخطى؛ لأنه حتى الآن لم يدخل إلى داخل هذا المنزل. يا لغبائه... والمفتاح دائمًا في جيبه!

ها هو المالك قد عاد من الخارج. لقد ارتقى درجات السلم المؤدي إلى الباب الكبير. وإذ بيدين شرستين تجذبانه إلى الخلف. كانتا تقاومانه بكل قوتهما. كانتا تجذبانه إلى الخلف قبل أن تدفعا به إلى الأمام. كان الطبيب يهزه بشدة ويصرخ له في الأذن:

– تشجع يا صاحبي. إنك قادر على ما تقوم به. لا تتراجع بل تقدم.

كانت الشراسة تطل من عينيه كمن يعمل على سحق عدو. تساءل "**سيجراف**" حينئذ: من عسى أن يكون هذا العدو؟ لقد انصرفت تلك المخلوقة المخيفة التي ترتدي الملابس السوداء هذا أيضًا كان غاية في الغرابة.

أما بالنسبة إليه، كان كل ما يريده هو أن يترك في هدوء، وأن يعود إلى المنزل؛ لأن المنزل كان يتلاشى من دقيقة إلى أخرى. بالتأكيد، كان ذلك لأن الطبيب كان قويًا جدًا. أما هو فكان لا يستطيع المقاومة. والله يعلم أنه لو كان قادرًا لاستطاع القيام بذلك. لكن، لنقف عند هذا الحد! كانت هناك وسيلة أخرى... لقد أصبحت الطريقة تتلاشي فيها الأحلام عند اليقظة، وليست هناك قوة تعمل على استبقائها. إنها تهرب من بين الأصابع...

نعم، هكذا كانت الوسيلة! لقد عادت الجدران البيضاء إلى الظهور بينما كان صوت الطبيب يختفي ولمسة يديه تكاد أن تكون غير محسوسة. كان واقفًا في مواجهة باب المنزل. والهدوء شامل. لقد وضع المفتاح في قفل الباب وأداره.

ثم توقف لحظة لكي يتذوق على نحو أفضل ملء السرور الذي شعر به. ثم تخطى عتبة الباب.

*****

- 21 -

الممثلة

شخصيات الرواية:

– "**أولجا ستورمر**" : الممثلة، اسمها الأصلي "**نانسي تايلور**" .

– "**داناهان**" : مدير أعمال الممثلة.

– "**جونس**" : سكرتيرة الممثلة.

– "**جاك ليفيت**" : نصاب.

– "**ريتشارد**" : عضو بالبرلمان.

– "**مرجريت ريان**" : منافسة للممثلة.

كان شخص ما يجلس في الصف الرابع من الأوركسترا وكان يرتدي بذلة كاملة. قطب هذا الشخص بين عينيه وتفحص المشهد دهشًا غير مصدق. وتمتم قائلاً:

– "**نانسي تايلور**". يا إلهي! إنها "**نانسي تايلور**" الصغيرة.

ثم وقع نظره على البرنامج الذي كان ممسكًا به، فقال بعد قراءته اسمًا مطبوعًا بحروف كبيرة أكبر من الباقي :

– "**أولجا ستورمر**"! هكذا دعت نفسها؛ إذًا صغيرتي تقوم بعمل نجمة. أراهن على أنك يا صغيرتي سوف تنسين مع الوقت أنك كنت تدعين ذات يوم "**نانسي تايلور**"، كما أني أتساءل عما سوف تقولين لو أتى "**جاك ليفيت**" ليذكّرك...

أسدل الستار عند نهاية الفصل الأول، وإذا بالصالة كلها تصفق بحرارة. هذا؛ لأن "**أولجا ستورمر**" الممثلة الكبيرة القديرة أضافت نجاحًا جديدًا إلى قائمة نجاحاتها في دور "**كورا**" في "**لانج إكسترميناتيتر**" "الملاك المهلك".

لكن "**جاك**" كان لا يشترك في التصفيق، إنما كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة جافة؛ لأن الموضوع بدأ يصل إلى أعماقه لكنه كان من النوع الذي لا يؤثر فيه شيء.

في صباح اليوم التالي بدأت تظهر نتائج عمل "**جاك ليفيت**"، وكانت "**أولجا**

ستورمر" في صالونها تقرأ وتعيد قراءة خطاب، وقد بدت في حالة تفكير. كان وجهها الشاحب يفقد تدريجا ما يبدو عليه من صفاء ذهن وإذا بعينيها تركزان في نقطة في الفضاء الذي أمامها وكأنها تتطلع من خلال كلمات الخطاب إلى التهديد المختفي خلفها. ثم بصوتها الرائع نادت "**أولجا**" :

– آنسة "**جونس**". في الحال ظهرت فتاة أنيقة تضع نظارة على وجهها، وبيدها أوراق وقلم.

– اتصلي هاتفيًا بالسيد "**داناهان**" واطلبي منه أن يحضر فوراً.

لم يتأخر "**داناهان**" – وهو مدير أعمالها – عن تلبية طلبها. وكانت على ملامحه تلك المخاوف المألوفة عند إنسان مسؤول عن تنظيم كل ما يبدو من أهواء أو تقلبات فنانة كبيرة. وكان عمله اليومي وسر نجاحه معها هو العمل على ملاطفتها وتهدئتها تارة وأن يعاملها بشدة تارة أخرى أو أن يستخدم الوسيلتين معًا. إلى أن تبدو له – وهو ما يطمئن له – أنها قد استعادت صفاءها ولقد وضعت له ورقة على مائدة العمل، وقالت له :

– اقرأ هذا. وكان الخطاب مسطراً بخط رديء وعلى ورق رخيص. وكان هذا نصه :

"سيدتي العزيزة،

لقد كان تقديراً كبيراً لك عند قيامك بدورك الناجح في إخراج "الملاك المهلك" وتقديمه. يبدو لي أن لنا صديقة مشتركة في شخص "**نانسي تايلور**" التي كانت فيما مضى تقيم في "**شيكاغو**"، وسوف يظهر قريبًا مقال يخصها وهو تحت الطبع. وإذا كنت تريدين مناقشتي ففي إمكاني أن أزورك في الوقت الذي يناسبك".

مع فائق احترامي،

"**جاك ليفيت**"

حينئذ بدت الحيرة على "**داناهان**" :

– أنا لا أفهم... من هي هذه الـ"**نانسي تايلور**"؟ قالت "**أولجا**" :

– هي فتاة كنت أفضل سماع خبر وفاتها يا "**داني**" . وكان في صوتها مرارة:
– فتاة كانت ميتة إلى أن يأتي هذا النصّاب المستغل ويوقظها .
– آه! تقصدين أن . . .
– نعم يا "**داني**" إنه أنا .
– ابتزاز بالتخويف إذاً؟ أبدت تأييدها لكلامه قائلة:
– بالتأكيد والشخص النصاب يعرف مهمته. وقد تقطب بين حاجبيه، استغرق "**داناهان**" في التفكير بينما كانت "**أولجا**" تضع وجنتها على كفها وتراقبه بنظرتها التي عجزت عن معرفة رد الفعل عنده.
– ليس أمامنا سوى أن نخدعه. أن ننكر، وهو غير مستند إلى أي إثبات. ومن الممكن أن يكون قد أخطأ بسبب تشابه المصادفات. هزت رأسها وقالت:
– المساومة على ابتزاز السيدات يُعتبر مصدر رزقه. وهو واثق بضربته. تقدم "**داناهان**" بنبرة السائل وقال:
– إخطار الشرطة؟ أبدت ابتسامة ساخرة تكفي للرد عليه. على الرغم من رباطة الجأش التي كانت تبديها، كان صبر الممثلة قد نفد، وإن كان قد عجز عن تمييز ذلك.
– ألا تعتقدين أنه قد يكون مجدياً من قبلك . . . أن تتحدثي في ذلك بنفسك مع السيد "**ريتشارد**" وهو عضو في البرلمان؟ قد يفيد ذلك في إفشال خطته، وكانت خطبة الممثلة على السيد "**ريتشارد**" قد أعلنت قبل ذلك بعدة أسابيع.
– لقد حكيت كل شيء لـ"**ريتشارد**" عندما طلبني للزواج به. قال لها "**داناهان**" معجباً:
– إنها حقًّا مرونة من قبلك. فأبدت "**أولجا**" ابتسامة خفيفة.
– لم تكن مرونة يا عزيزي "**داني**" . لن يمكنك إدراك ما أبغيه. لكن بأيّ شكل إذا حاول هذا الـ"**ليفيت**" تنفيذ تهديداته فإن وضعي مستقر وحسابي جيد وللمناسبة نفسها لقد انتهى الأمر من جهة عمل "**ريتشارد**" في البرلمان. لا، بحسب رأيي لا يوجد سوى حلين أضعهما أمامي.
– وما هما؟

– الدفع ، وهذا أكيد لن يكون له نهاية أبداً. إذًا الاختفاء والبدء من الصفر. (وكان صوتها – من جديد – يظهر مللها) ولو كنت قد ارتكبت عملاً ما من الممكن أن أندم، وكنت في تلك الفترة صغيرة بنت شوارع تكاد أن تموت جوعًا وكانت تحاول أن تبقى في الطريق المستقيم. لقد قتلت رجلاً كان وحشًا وكان يستحق ما حدث له. كانت الظروف التي قتلته فيها مهيأة بحيث لا تستطيع أية لجنة تحكيم قضائية في العالم إدانتي... حاليًا، أعلم ذلك؛ لكن في تلك الفترة، لم أكن سوى صبية مرهبة... و... ورحلت. حك "**داناهان**" رأسه، ثم أردف:

– إني متخيل أنه لا وجود لأي شيء نستطيع العثور عليه ضد هذا الـ"**ليفيت**". وافقت "**أولجا**" على كلامه:

– في الواقع، هذا قليل الاحتمال.. فهو جبان جداً إلى حد أنه يقوم بمثل هذا العمل القذر... (وصدى كلماتها هي ذاتها على ما يبدو قد فاجأها!) جبان! إني أتساءل إذا كنا لا نستطيع الاستفادة من ذلك بطريقة أو أخرى. هنا اقترح "**داناهان**":

– وإذا قام السيد "**ريتشارد**" بمقابلته وتمكن من ضربه بهذا الجبن...

– قد يكون "**ريتشارد**" وسيطًا رقيقًا ومهذبًا... هذا النوع لا يعرف التعامل مع هذا الشخص ولا يقدر عليه.

– إذًا دعيني أقابله.

– المعذرة يا "**داني**". لا أعتقد أنك ستكون نافعًا. إن ما يلزم هو حل وسط. لتكن امرأة مثلاً! نعم أعتقد أنه قد تقوم سيدة بهذه المهمة. لكن على أن تكون سيدة على دراية وخبرة بهذه الأمور الخسيسة في الحياة. "**أولجا ستورمر**" مثلاً! اسكت من فضلك لقد وافتني فكرة... ثم مالت مخبئة وجهها بين يديها، وبعد ذلك انتصبت فجأة:

– ما اسم هذه الفتاة التي ترغب في منافستي؟ "**مرجريت ريان**" أليس كذلك؟ وهي ذات شعر يشبه شعري.

– بالنسبة إلى الشعر ممكن – هكذا أبدى "**داناهان**" موافقته متأملاً تلك الهالة البرنزية الذهبية التي تحيط بوجه "**أولجا**" – لكن ما زاد على ذلك فهو غير منطبق

ولقد كنت متأهبًا لرفضها الأسبوع القادم.

– وإذا كانت الأمور تسير حسنًا فسنضطر إلى استخدامها كممثلة بديلة لدور "**كورا**" (كتمت اعتراضه بحركة). "**داني**" أجب بصراحة عن السؤال الذي سوف أوجهه إليك. أتعتقد أني جديرة بالتمثيل؟ التمثيل الحقيقي، مفهوم أم أني لست سوى سيدة جذابة تتألق في المشاهد في أبهى مظهر؟

– التمثيل؟ يا إلهي! "**أولجا**" لم تتواجد واحدة مثلك من أيام "**لاديز**".

– إذًا لو كان "**ليفيت**" نذلاً فعلاً كما أعتقد فإن خطتي ستنجح. لا لن أحدثك عنها. إنما أريد منك أن تعثر لي على هذه الـ"**مرجريت ريان**". أخبرها بأني معجبة بها وأرغب في أن تحضر هنا مساء الغد لتناول العشاء... أعتقد أنها ستوافق بسهولة.

– في الواقع، سوف أدهش لذلك.

– وما يلزمني أيضًا منوِّم فعّال وحيلة كفيلة بجعل أيّ شخص عاجزًا عن المقاومة خلال ساعة أو ساعتين؛ لكن دون أن تكون لها عواقب في اليوم التالي. ابتسم "**داناهان**" وهو يقول:

– من الصعب أن أضمن لك أن صديقنا لن يصاب بصداع نصفي، لكنه لن يعاني ضررًا جسيمًا.

– حسنًا، أسرع بالتنفيذ يا "**داني**" واترك الباقي عليَّ.. (رفعت صوتها):

– آنسة "**جونس**". وفجأة ظهرت السيدة ذات النظارة بما لها من سرعة معتادة. وفي تقدمها ببطء في كل الأنحاء، أملت "**أولجا**" بريدها اليومي، غير أنه كان من بين الخطابات المختلفة، خطاب وضعته بيدها.

في حجرته، ضحك "**جاك ليفيت**" بملء شدقيه وهو يفتح الظرف الذي كان ينتظره.

"سيدي العزيز،

أنا لا أتذكر السيدة التي حدثتني عنها؛ لأني أتقابل مع أناس كثيرين وذاكرتي تخونني أحيانًا. غير أنه يسعدني دائمًا أن أعاون زميلة عمل؛ لذلك إني في

انتظارك مساء اليوم في الساعة الواحدة والعشرين أي التاسعة. كما يبدو لي أنه ميعاد يناسبك".

مع أرق التحيات،

"أولجا ستورمر"

صار "**ليفَيت**" مسرورًا. ليست غبية. لن تصارح بشيء، وليست مستعدة للتفاوض..

في تمام الساعة الواحدة والعشرين بالضبط، كان "**ليفيت**" يطرق باب شقة الممثلة ولم يرد عليه أحد، وإذ كان متأهبًا لطرق الباب ثانية اكتشف أنه غير مغلق بالمزلاج. دفع الباب ودخل إلى صالة المدخل، كان عن يمينه باب يفتح على حجرة جيدة الإضاءة ومزينة بالأحمر والأسود. دخلها "**ليفيت**"، كانت هناك ورقة موضوعة على المائدة، وتحت المصباح ورقة تحمل هذه الكلمات:

"ليتك تتكرم وتنتظر عودتي". "**أ. ستورمر**"

جلس "**ليفيت**" وانتظر. بدأ مزاجه ينحرف لا إراديًا. كان كل شيء هادئًا في هذه الشقة... وكان لهذا السكون طابع مؤثر. ومع ذلك ليس هناك ما يدعو إلى القلق... لكنه كان أقرب ما يكون إلى سكون الموت. وعلى الرغم من ذلك، ساوره إحساس بأنه ليس بمفرده في الحجرة. غباء! مسح جبينه من العرق. لكن هذا الإحساس كان يتزايد. إنه ليس بمفرده. وتمتم سبًّا ثم انتصب وأخذ يتجول في الغرفة: "قد تعود هذه السيدة في خلال دقيقة..." وحينئذ، توقف فجأة وهو يكتم صرخة. إن يدًا امتدت من خلال الستارة القطيفة السوداء التي على النافذة. كانت هذه اليد باردة جدًّا، يد جثة، صرخ وأزاح الستارة. وجد سيدة ممددة على الأرض وإحدى ذراعيها مبسوطة والأخرى قد انثنت تحتها. كانت ترقد ووجهها نحو الأرض وشعرها الذي بلون البرنز الذهبي يحيط بعنقها.

"**أولجا ستورمر**"! بحث بأصابعه المرتجفة عن معصمها وفحص نبضها. إنه متوقف تمامًا. إنها ميتة. وهكذا باختيارها المخرج السهل هربت منه. فجأة لفت نظره طرفا حبل أحمر ينتهي كل منهما بشرابة غريبة الشكل تكاد أن تكون مخفية وسط الشعر. عندما لمسهما اهتز الرأس، ورأى وجهها وقد علته الزرقة، فتراجع صارخًا.

وقد أصيب بدوار. في الأمر شيء لا يفهمه لكنه أدرك من هيئة الوجه أنها حالة اغتيال وليست حالة انتحار. كانت السيدة مخنوقة و... ولم تكن "**أولجا ستورمر**"!! لكن ما هذا الصوت الذي خلفه؟ التفت ليرى عينين فزعتين لسيدة متململة بجوار الحائط، وجهها شاحب جدًّا، إلا أن الكلمات المخنوقة كشفت له عن الخطر الذي يحيط به.

– يا إلهي! لقد قتلتها. وحتى في تلك اللحظة لم يدرك شيئًا اعترض قائلاً:

– لا، لا لقد وجدتها ميتة.

– لقد رأيتك وأنت تقتلها القد ضيقت على الحبل وخنقتها. في هذه المرة، تصبب العرق بغزارة من جبينه. واستعاد بسرعة الحركة التي قام بها في الدقائق السابقة. لابد أنها دخلت في اللحظة التي كان يمسك فيها بطرفي الحبل. لقد شاهدت الوجه المنكس وكان قد اختلط عليها صوت صرخته مع صرخة الضحية، لقد كان باديًا على وجهها الفزع والغباء. وسوف توافي الشرطة بما شاهدته بمكان الجريمة ولن تتراجع عن إقناعها بتغيير أقوالها. وسوف تقسم أنها تقول الحقيقة. يا لألاعيب القدر عندما يستخدم ملابسات المواقف! ألم يوجد بعض المؤامرة... وقال لها بعد أن ضربها على رأسها وهو يتفرس فيها جيداً:

– إنها ليست سيدتك، إنك تعلمين ذلك. وجاء رد أثار الموقف:

– لا إنها صديقتها الممثلة. إن صح القول إنهما صديقتان؛ نظرًا إلى أنهما كانتا مثل الكلب والهر! ومساء اليوم، كانتا على وفاق. "لقد كان فخًّا بالتأكيد!! ولقد اتضح حاليًّا!". هكذا فكر "**ليفيت**".

– أين سيدتك؟

– خرجت منذ عشر دقائق.

فخ! إن هذه الـ"**أولجا ستورمر**" كانت تتصرف بمرونة شيطانية: لقد تخلصت من منافسة لها وهو الذي كان سيتحمل ذلك بدلاً منها.

اغتيال! يا إلهي. هذا ما كان ينتظره وهو بريء... حقًّا بريء...!

بعد قليل عملت حركة مصدرة صوتا على خروجه من أفكاره. كانت عاملة النظافة تتجه نحو الباب ولقد بدأت تستعيد وعيها. وقع نظرها على التليفون ثم

على الباب. كان لابد له من تحويلها إلى السكون بأي ثمن. وكانت هذه الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا الاتهام. لم يكن لديها سلاح... ولا هو. لكن كانت له يداه. اضطرب وخفق قلبه بشدة.

كان موضوعًا على المنضدة بالقرب منها مسدس يكاد أن يكون في متناول يدها. "ليته يتمكن من الحصول عليه قبلها"، هذا ما جال بخاطر الفتاة، أو أن عينيه هما اللتان أنذرتاها بذلك. فأمسكت بالمسدس في اللحظة التي كان يحاول أخذه وصوبته إلى صدره. من الممكن أن ينطلق منه الرصاص لو كانت تمسك به بطريقة خاطئة. تجمد مكانه. مسدس تمتلكه "**أولجا ستورمر**" لابد أنه معد للإطلاق...

مع ذلك... كانت لا تقف بينه وبين الباب. طالما لا يعتدي عليها، قد لا تفكر في التصويب عليه. وكان عليه بأيّ شكل أن يخاطر. أسرع نحو الباب، واخترق الصالة واجتاز باب المدخل وأغلقه بشدة خلفه. سمع صوتًا مرتجفًا ومخنوقًا، كان صوت الفتاة التي تصرخ، يا شرطة السفاح! ليتها لا تصرخ بصوت عالٍ لكيلا يسمعها أحد على أيّ حال، كان هو من جانبه يتقدم. نزل السلالم بسرعة وانطلق إلى الشارع جريًا، ثم عاد إلى المشي المعتاد، وإذا بأحد المارة يفاجئه عند ناصية الشارع. لقد اكتملت خطته، وذلك بالوصول أولاً إلى "**جرافسيند**"، ثم من هناك في تلك الليلة سوف تبحر سفينة إلى آخر العالم، وكان يعرف قبطانها، وهذا الرجل لن يواجهه بأي سؤال، ولو كان على متنها وفي البحر فلن يخشى شيئًا. في تمام الحادية عشرة مساء، رنّ جرس التليفون عند "**داناهان**". كانت "**أولجا**":

– حرّر عقدًا للآنسة "**ريان**" من فضلك؛ لأنها ستقوم بدور "**كورا**"؛ لأنها ستكون النسخة مني. ولا فائدة من المناقشة؛ لأني مدينة لها بما تسببت لها فيه في هذه الليلة! كيف؟ نعم أعتقد أن متاعبي قد انتهت. بالمناسبة إذا قالت لك غدًا إني متبعة مبدأ الأرواحية (تحضير الأرواح) وإني تسببت لها في أن تجمدت وتخشبت كلها في الليلة الماضية فلا تظهر عدم تصديقك ذلك. كيف تصرفت؟ وضعت منومًا في قهوتها، وبعده موجات مغناطيسية وتلوين دم باللون البنفسجي، ووضعت ضاغطة على ذراعها الأيسر.. لقد ذهلت بالتأكيد! لن أوضح لك الآن؛ لأنه ليس لديّ وقت الآن. وينبغي أن أتخلص من الغطاء الذي على رأسي ومن

مريلتي قبل أن تعود "**مود**" التي تخلص لي من السينما؛ إذ كان ينبغي تقديم عمل بارز. ولقد قمت هذا المساء بتقديم أفضل دور لي، يا "**داني**". إنهن السيدات اللاتي ربحن حقًّا. "**جاك ليفيت**" شخص نذل، جبان، ثم آه يا "**داني**"... بعد كل ذلك أنا حقًّا ممثلة كبيرة.

*****

نقطة اللارجوع

شخصيات الرواية:
– "**كلير هاليويل**": إحدى الخادمات الاجتماعيات في الكنيسة.
– "**جيرالد لي**": صاحب المزرعة.
– "**فيفيان لي**": زوجة "**جيرالد لي**"، آنسة "**هاربر**" سابقًا.
– "**ويلموت**": راعي الكنيسة.
– "**ريفيس**": طبيب بيطري.
– "**سيريل براون**": مهندس شاب.
– "**لوريستون**": ممرضة.

نزلت "**كلير هاليويل**" الدرب القصير المؤدي من باب منزلها الريفي إلى سور الحديقة. كانت تحمل على ذراعها الأيسر سلة، وفي هذه السلة كانت توجد زجاجة حساء ومربى منزلي وبعض عناقيد العنب. كان عدد البؤساء المعدمين في قرية "**دايمر إند**" الصغيرة لا يحصى لكن كان يعتنى بالأكثر بمن يعانون الإعواز، وكانت "**كلير**" إحدى الخادمات الاجتماعيات في الكنيسة.

كانت "**كلير هاليويل**" تبلغ من العمر اثنين وثلاثين سنة، وتتمتع بصحة جيدة، وعيناها جميلتان عسليتان. لم تكن جميلة، لكنها كانت جذابة تفيض نضارة، وكانت إنجليزية أصيلة، وكان الجميع يقدرونها ويدعونها الفتاة الشجاعة. كانت – منذ وفاة والدتها قبل ذلك بعامين – تعيش بمفردها في المنزل الريفي مع "**كلير روفر**". وكانت تقوم بتربية الدواجن كما كانت مولعة بالحيوانات، وكانت ترى أن الصحة الجيدة إنما هي في الهواء الطلق النقي.

في الوقت الذي كانت ترفع فيه مزلاج الحاجز، مرت عربة ذات مكانين وكانت سائقتها فتاة تضع على رأسها قبعة حمراء، هذه الأخيرة قامت بتحيتها – تحية الصباح – بإشارة من يدها. بادلتها "**كلير**" تحيتها، لكن شفتيها انضمتا لفترة،

كانت تشعر بانقباض القلب هذا كلما لمحت "**فيفيان لي**" زوجة "**جيرالد**"!

كانت مزرعة "**ميدينهام**" – الواقعة على مسافة كيلومتر ونصف من القرية – ملكًا لآل "**لي**" منذ أجيال مضت. كان السيد "**جيرالد لي**" يبدو أكبر سنًا من الحقيقة، وكثيرون كانوا يعتبرونه متعاظما، لكن تصرفاته المصطنعة كانت في الواقع تعمل على إخفاء قدر كبير مما عنده من خجل. كانت "**كلير**" تلعب معه في طفولتهما، ومن بعدها أصبحا صديقين ثم ضاقت الحلقات واتخذت وضعًا حانيا، وكانت توحي سرًا بآمال مستقبلة من كثيرين بمن فيهم "**كلير**" ذاتها. وإن لم يظهر ذلك في النور... لكن ذات يوم... كانت "**كلير**" قد احتفظت بهذا الإحساس في ذهنها.

وفجأة – كان ذلك منذ عام بالضبط – فوجئت القرية كلها بإعلان زواج السيد "**جيرالد**" بالآنسة "**هاربر**" – فتاة لم يسمع عنها أحد قط من قبل.

لم تكن السيدة "**لي**" ذات شخصية شعبية، وكانت لا تميل إلى الأمور القروية، وتضجر أمام الصيد، وتمقت الريف وكل عمل في الهواء الطلق. كانت "**فيفيان**" جميلة، نحيفة رشيقة مرحة ذات شعر ذهبي أحمر يتموج بطريقة رائعة على أذنيها الصغيرتين، وعينين واسعتين. بالإجماع كانت النقيض التام لـ"**كلير هاليويل**".

كان "**جيرالد لي**" – بما له من براءة وسلامة نية – يعمل متمسكًا بأن تصبح زوجته و"**كلير**" أفضل صديقتين في الدنيا، وهكذا كثيرًا ما كانت "**كلير**" تدعى للعشاء في المزرعة، وتحرص "**كلير**" على إبداء المودة والحنان منذ أول لقاء لهما عندما أشارت إليها بيدها.

واصلت "**كلير**" طريقها لإتمام واجبها. وكان الراعي هو أيضًا قد قام بزيارة – وهو واجب عليه – سيدة مسنة، قطع هو و"**كلير**" مسافة نحو عدة مئات من الأمتار معًا وهما على طريق العودة قبل أن تتفرق بهما الطريق. وفي لحظة الافتراق، توقفا دقيقة، الوقت اللازم لتذكر المتاعب الكبيرة وما فيها من هموم ومآسٍ. أردف الراعي:

– لقد عاد "**جونس**" إلى احتساء الشراب. وهذا ما أخشاه. هذا بعدما كنت متوقعًا أنه سيحترم وعده بتغيير عادته هذه.

– أمر مؤسف. هكذا علقت "**كلير**".

– هذا ما يبدو لنا (هكذا قال السيد "**ويلموت**") لكن هذا؛ لأننا نهمل وجهة النظر بأن نضع ذواتنا مكانه وقياس مدى عنف إغراءاته. بالتأكيد الرغبة في الشراب أمر معقد، لكننا جميعًا معرضون لبعض التجارب الشخصية؛ لذلك علينا نحن أيضًا تفهم الموقف. قالت:

– نعم ربما أن هذا صحيح. تفحصها الراعي باهتمام ثم أردف بهدوء:

– من حسن حظ البعض أنهم غير معرضين للتجارب. لكن ستأتي ساعة لأولئك أيضًا، خذي الحذر وصلي. هأنذا أنبهك؛ لكيلا تقعي في تجربة. تبادلا تحية الصباح بعد ذلك وانصرف بخطى واثقة وسريعة.. ومن جانبها واصلت "**كلير**" وهي متفكرة طريقها، وبعد قليل تقابلت وجها لوجه مع السيد "**جيرالد لي**".

– سلام يا "**كلير**". كنت متوقعًا أني سأتقابل معك بالمصادفة، ها إنه يبدو عليك أنك تتمتعين بصحة جيدة. إن وجهك مشرق، وهذه الإشراقة كانت منعدمة منذ قليل. قبل ذلك بدقيقة، واصل "**لي**":

– كما سبق وقلت لك كنت أتمنى أن أتقابل معك. لقد اضطرت "**فيفيان**" إلى التوجه إلى "**بور نماوث**" لقضاء إجازة نهاية الأسبوع؛ والدتها معتلة. هل في إمكانك تناول العشاء معنا يوم الثلاثاء بدلاً من مساء اليوم؟

– بالتأكيد. يوم الثلاثاء يناسبني جدًّا.

– إذن. اتفقنا. رائع ويجب عليّ أن أسرع. عادت "**كلير**" إلى منزلها لتجد خادمتها المخلصة واقفة على عتبة الباب:

– آه لقد وصلت يا آنسة. يا للارتباك! لقد أعادوا إلينا "**روفر**". كان قد خرج في الصباح وإذا بسيارة تسحقه تحتها. أسرعت "**كلير**" إلى كلبها. كانت "**كلير**" تعشق الحيوانات، وكان "**روفر**" الحيوان المفضل عندها. تحسست أعضاءه ثم فحصت الجسم كله. وإذا به يئن على دفعتين ويلحس يدها. ولا عظمة تبدو مكسورة.

– هل نطلب له طبيبًا بيطريًّا؟ هزت رأسها علامة الرفض؛ لأنها لا تثق بتاتًا بالطبيب البيطري المحلي. قالت:

– سننتظر إلى الغد. إنه ليس في خطر، ولون لثته عادي مما يؤكد عدم وجود نزيف داخلي. وغدا إذا بدا لي متعبا فسوف أصطحبه بسيارتي إلى "**سكيبنجتون**" وسأطلب من "**ريفيس**" أن يفحصه. وسيكون ذلك أفضل.

في اليوم التالي، بدا على "**روفر**" أنه يضعف فقامت "**كلير**" بتنفيذ مشروعها وإن كانت مدينة "**سكيبنجتون**" الصغيرة تبعد عدة كيلومترات أي حوالي ستين كيلومتراً – وهي مسافة تحتاج إلى مسيرة طويلة، غير أن شهرة "**ريفيس**" الطبيب البيطري الموجود فيها تمتد إلى أبعد من ذلك. وجاء تشخيصه باحتمال وجود بعض الصدمات الداخلية، لكنه كان يتوقع أنها قابلة للشفاء. اطمأنت "**كلير**" وعهدت بـ"**روفر**" إليه لعنايته.

لم يكن في "**سكيبنجتون**" سوى فندق واحد. "**ليه آرم دي كومتيه**". كان أكثر نزلائه من التجار؛ لأن المدينة كانت بعيدة عن وسائل الاتصالات والمنطقة لا تتمتع بشهرة للصيد. ولما كانت وجبة الغداء لا تقدم قبل الساعة الثالثة عشرة، فكرت "**كلير**" في قضاء الدقائق التي أمامها حتى هذا الموعد في تصفح سجل الزوار وقراءة الإمضاءات.

فجأة أطلقت عبارة تعجب خفيفة. لا شك في أنها تعرف هذا الخط من بين ألف خط... كانت واثقة بصاحب هذا الخط؛ لكن بداهة ما كان يبدو مستحيلاً "**فيفيان لي**" كانت في "**بور نماوث**" والإمضاء نفسه يثبت أنه من المستحيل: السيد والسيدة "**سيريل براون**" "**لندن**" فما كان منها إلا أنها – أمام دهشتها هذه – استفسرت من موظفة الاستقبال:

– السيدة "**سيريل براون**"؛ إنني أتساءل إذا كانت هي التي أعرفها؟ ثم أردفت:

– هل هي سيدة قصيرة القامة ونحيفة ذات شعر لونه ضارب إلى الحمرة؟ جميلة جداً.

– لقد وصلت في سيارة حمراء ذات مكانين. على ما أعتقد أنها سيارة "**بيجو**".

وكان هذا هو بالضبط، يالها من مصادفة! وكما في حلم سمعت السيدة وهي تواصل كلامها:

– كانا قد أتيا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع منذ حوالي شهر، وإذ المكان قد

أعجبهما فإنهما قد عادا. زوجان حديثا الزواج (عروسان) أمر لا يدهشني. وجاء قول "**كلير**":

– شكراً، لا أعتقد أن ذلك بشأن صديقتي.

كانت نبرة صوتها قد تغيرت حتى أنها بدت وكأنها لشخص آخر.. وبعد قليل جلست أمام مائدة المطعم وتناولت شريحة لحم مشوي بارد وذهنها يغلي لمواجهته مؤثرات متناقضة. لم يصبح هناك مجال للشك. غير أنها استوعبت كل شيء عن "**فيفيان**" منذ أول لقاء لهما، إنها هي بالتأكيد. وتساءلت عما قد يكون هذا الرجل؟ شخص كانت "**فيفيان**" تعرفه قبل الزواج؟ هذا أكثر من أن يحتمل... لكن ما الأهمية لذلك... كان المهم هو "**جيرالد**".

ما الذي ستفعله بخصوص "**جيرالد**"؟ كان لابد من أن يعرف؛ نعم، لا شك في أنه ينبغي أن يعرف. فهي تجد أن من واجبها إحاطة "**جيرالد**" بالحدث دون تمهل. لقد كانت صديقة "**جيرالد**" وليست صديقة "**فيفيان**".

غير أنها مع ذلك كانت تشعر بانحراف المزاج، شعرت بأن ضميرها غير مستريح. لأول وهلة كان تفكيرها جيداً، لكن الواجب والمشاعر كانا متناقضين؛ كان لابد لها من أن تعترف بأنها كانت تكره "**فيفيان**"، إلى جانب ذلك لو طلقها "**جيرالد لي**" – وكانت لا تشك لحظة في أن هذا هو ما سوف يفعله؛ لأنه رجل مرموق – فحينئذ تكون الفرصة مهيأة لعودته إليها. كانت عندما تنظر إلى هذا الموقف من هذه الزاوية تشعر بالضيق أكثر فأكثر. وكانت ترى في ذلك ما هو أشبه بخيط أبيض.

كان العنصر الشخصي له دور كبير إذ كان في الحسبان. كانت لا تستطيع أن تقسم بنقاء نياتها. كانت "**كلير**" سيدة موهوبة بالذهن المتقد والضمير اليقظ، فكانت تقاوم في هذا الوقت بكل قواها لتحدد أين واجبها. كانت تتمنى أن تسلك بالمنطق السليم. ما هو الأفضل؟ وما هو السيئ؟

حدث بعد ذلك بمحض المصادفة أن أحداثا سابقة أتت إلى ذهنها. كانت تظهر أنها كانت تحب الرجل من أعماقها والسيدة التي كانت تمقتها – نعم لابد من الصراحة – والتي كانت تغار منها. بناء على ذلك كانت هذه السيدة التي في

اعتبارها هي التي تتسبب أو تعمل على فقدها. لكن هل تعتزم التنفيذ؟
كانت "**كلير**" تزدري عادات القرويين. ثم حدث فجأة أن الكلمات التي نطق بها الراعي ليلة أمس عادت إلى ذهنها:

"وحتى أولئك، ستأتي ساعتهم" هل كانت هذه ساعتها؟ أهي تجربتها؛ تجربة مقنعة بالواجب؟ فهي كانت "**كلير هاليويل**"، المسيحية الطيبة التي تحب قريبها وتحب الخير لكل الناس... رجالاً ونساءً وإذا أرادت إدخال "**جيرالد**" في الموضوع يجب أن تكون واثقة بأنها ليست خاضعة لأحاسيس الغيرة. في الحال قررت ألا تقول له شيئًا.

سددت حساب غدائها وسلكت طريق العودة، وقد تخلصت نفسها من حمل ثقيل غير محتمل بل وكانت تشعر بسعادة لم تشعر بها من قبل، مبتهجة لحصولها على القوة لمقاومة التجربة وعدم القيام بأيّ عمل خسيس.

وإذ اعتراها إحساس لمدة دقيقة بأن هذه القوة ربما كانت أصل هذا الابتهاج لكن سرعان ما أبعدت هذا الفكر عنها. وفي مساء يوم الثلاثاء، كانت عزيمتها قد تقوت؛ إذ كان ينبغي أن ينكشف الموقف بعيداً عنها. أما هي فكان من الواجب عليها أن تلتزم الصمت. كان حبها السري لـ"**جيرالد**" يحتم عليها عدم الكلام.

وصلت إلى المزرعة في سيارتها الصغيرة. كان سائق السيد "**جيرالد**" يترقبها بداية من عتبة الباب الكبير لكي يقود السيارة إلى الجراج بعد أن تنزل منها؛ لأن الجو كان رطبًا في ذلك الحين. في الوقت الذي كان يعمل على ذلك تذكرت الكتب التي كانت قد استعارتها وأحضرتها لكي تعيدها.. نادته، لكنه لم يسمعها. فأسرع رئيس الخدم إلى السيارة.

وهكذا كانت "**كلير**" خلال دقيقة قد تواجدت بمفردها في الصالة على بعد خطوتين من باب الصالون الذي كان رئيس الخدم قد واربه لكي يخبر بوجودها.
كان الذين بالحجرة يجهلون وجودها، وإذا بها تسمع صوت "**فيفيان**" واضحًا:
- إننا لا ننتظر سوى "**كلير هاليويل**"... لابد أنك تعرفها... إنها تسكن في القرية... كان المفروض أنها ستعد ضمن الجميلات، غير أنها وا أسفاه! لقد حاولت بكل استطاعتها أن تتسلط على "**جيرالد**" لكن لم يكن ذلك في إمكانها

إلا بالأمر البسيط. ورداً على تمتمة اعتراض من زوجها.

– آه. بلى! لابد أنك لم تلاحظ ذلك، لكنها كانت تتصرف كفتاة مفقودة. مسكينة يا "**كلير**"! فتاة ممتازة لكنها تائهة. وإذا بوجه "**كلير**" يصاب بشحوب بالغ ويداها متقلصتان من ثورة لم يسبق لها أن عانتها. في تلك اللحظة لو استطاعت لقتلت "**فيفيان لي**" ولكنها بمجهود بدني يفوق الطبيعة تمكنت من تمالك نفسها. هذا ومازالت تسيطر عليها فكرة كيف تجعل "**فيفيان**" تدفع ثمن شراسة أقوالها. كان رئيس الخدم قد عاد ومعه الكتب، فتح الباب وأعلن وجودها، ثم بعد لحظة كانت تحيّي الجمع بطريقتها المصطنعة المألوفة عندها.

كانت "**فيفيان**" في فستان سهرة بلون التبر يبرز بياض بشرتها، بدت رقيقة جداً. كانت "**فيفيان**" ستتعلم رياضة الجولف، وكان لابد من أن ترافقها "**كلير**" إلى الملعب الخاص بهذه الرياضة، كما أن "**جيرالد**" هو أيضًا أبدى كل انتباه وبدا لطيفًا. وعلى الرغم من أنه لم يشك لحظة في أنها فوجئت بكلمات زوجته، كان يشعر بأهمية جعلهما يتصالحان وتغفر كل منهما للأخرى. كان يحب "**كلير**" ويتمنى أن تكف "**فيفيان**" عن مثل هذه التعليقات المؤسفة، وكان هو و"**كلير**" صديقين ليس أكثر من ذلك. وبعد العشاء، دار الحديث حول الكلاب فكان أن "**كلير**" سردت الحادثة التي تعرض لها "**روفر**"، ثم أضافت:

– الأمر الذي جعلني أصطحبه يوم السبت إلى "**سكيبنجتون**". فجأة سمعت رنين قدح القهوة الخاص بـ"**فيفيان**" وهو يوضع بشدة على طبق القدح، لكنها لم تحول نظرها نحو السيدة.

– لكي تعرضيه على "**ريفيس**" الشهير؟

– نعم، وأعتقد أنه سوف يفيده. بعد ذلك تناولت الغداء في "**ليه آرم دي كومتيه**". صدقوني إنه فندق ومطعم ممتاز. ثم التفتت إلى "**فيفيان**":

– هل سبق لك التوجه إليه؟ لو كانت عندها بعض الشكوك فلابد أن تكون قد تلاشت. وجاء رد "**فيفيان**" بلعثمة سريعة:

– أنا؟ آه، لا. لا.

كان الخوف باديًا في عينيها إذ إنهما اتسعتا ومالتا إلى السواد عندما تلاقتا بعيني

"**كلير**" . مقابل ذلك لم يكن في نظرة "**كلير**" ما يوحي بأيّ شيء. كانت نظرة هادئة، لا يستطيع أحد اكتشاف ما تخفيه. في تلك اللحظة غفرت "**كلير**" لـ"**فيفيان**" الكلمات التي سمعتها قبل ذلك في السهرة. ولقد شعرت في تلك اللحظة بإحساس بقدرة كان يفقدها عقلها. كانت تمسك بـ"**فيفيان لي**" في كفها.

في اليوم التالي، تسلمت خطابًا من الأخرى. ترى هل ستقبل "**كلير**" الحضور لتناول الشاي معها في فترة ما بعد الظهر ذاتها؟ لقد رفضت "**كلير**" ، بناء على ذلك أتت "**فيفيان**" عندها، وحرصت على التردد مرتين في ساعات كان من المؤكد العثور فيهما على "**كلير**" في المنزل. في المرة الأولى كانت "**كلير**" قد خرجت حقًّا، وفي المرة الثانية كانت قد خرجت من باب الخدم عندما لمحت "**فيفيان**" وهي في المدخل.

كانت تحدث نفسها متسائلة إذا كنت أعرف الحقيقة أم لا. إنها تريد مني الحصول على قلب صاف غير مشوش؛ لكن غير وارد؛ ليس قبل أن أكون مستعدة. كانت "**كلير**" هي ذاتها لا تعرف بالضبط ما كانت تنتظره.

لقد قررت التزام الصمت وهو أحسن تصرف. وفي تذكرها التحدي الذي خضعت له أضافت فضيلة أخرى. بعد اكتشافها الطريقة التي كانت "**فيفيان**" تتحدث بها عنها من الخلف، كان من الممكن لو أنها تخلت عن مبدئها أن ترجع في قرارها.

كانت قد ترددت في يوم الأحد هذا مرتين إلى الكنيسة. كان ذلك أولاً في صلاة القداس في الصباح الباكر التي خرجت منها، وقد تقوت وتخلصت أكثر فأكثر من أطوار هذه الحياة. ثم عادت مرة أخرى إلى الكنيسة لحضور اجتماع قام فيه السيد "**ويلموت**" بتقديم عظة عن صلاة الفريسي. وفي عظته بعد أن أشار إلى ما كان يقوم به هذا الرجل من أعمال بر، ذكر خطيئة الكبرياء التي تقدم بها هذا الرجل عندما تقدم للصلاة أمام الرب.

كانت "**كلير**" غير مصغية إليه بالقدر الكلي كما كانت تجلس في المكان المعد لأسرة "**لي**"، وكانت تعرف بحاستها أن الأخرى سوف تهاجمها عند الخروج. وهو

ما لبث أن حدث؛ إذ إن "**فيفيان**" تعلقت بها واصطحبتها إلى منزلها وسألتها إذا كانت ترغب في الدخول .وافقت "**كلير**"، جلست في الصالون الصغير وكان حديث "**فيفيان**" غير مترابط. بدأت بقولها:

– أتعلمين، لقد قضيت عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة في "**بور نماوث**". وجاء تعليق "**كلير**":

– هذا ما أخبرني به "**جيرالد**".

تبادلتا النظر وكانت "**فيفيان**" تبدو قبيحة الشكل تقريبًا؛ إذ كان وجهها قد تجرد من سحره من تأثير ما كان بداخلها. ومرة أخرى بدأت "**فيفيان**" بالسؤال:

– متى ذهبت إلى "**سكيبنجتون**"؟

– متى ذهبت إلى "**سكيبنجتون**"؟ هكذا كررت "**كلير**".

– لقد ذكرت لي اسم فندق صغير موجود هناك. لا أذكر اسمه.

– "**ليه آرم دي كومتيه**". نعم. أتذكّر أنك قلتِ إنك لا تعرفينه، أليس كذلك؟

– لقد نزلت فيه... مرة واحدة.

– آه! في هذه الفترة قد بدت "**فيفيان**" عاجزة عن مواجهة أية صعوبة، وكانت تكاد أن تنفجر. و... مالت إلى الأمام ثم قالت:

– إنك لا تحبينني. ولم يسبق لك أن أحببتني من قبل. لقد كنتِ دائمًا تكرهينني وهانت اليوم تسرين بالقيام بتمثيل لعبة الهر والفأر معي، إنك شرسة... شرسة. من أجل ذلك إني أخشاك؛ لأنك في الداخل شرسة.

– حقًّا يا "**فيفيان**"!

– كنتِ على علم بذلك، أليس كذلك؟ نعم أعلم ذلك جيدًا، كنتِ هناك في "**سكيبنجتون**" عندما ذكرت هذا المكان. ولقد اكتشفتِ ذلك، الله يعلم كيف وهأنذا أرغب في معرفة ما تعتزمين عمله. ماذا تعتزمين القيام به؟ تمهلت "**كلير**" لحظة قبل أن تجيب وكررت "**فيفيان**" بحدة:

– ما الذي تنوين عمله؟ يجب أن أعلمه. ولن تفكري الآن. أنتِ على دراية بكل شيء؟ أجابتها "**كلير**" بكل فتور:

– ليست لي نية إنكار أيّ شيء كان.

– لقد أخبرتني بأنك رأيتني هناك في ذلك اليوم؟
– لا. لا لقد لمحت خطك في سجل الدخول: السيد والسيدة "**سيريل براون**".
هنا علت الحمرة وجنتي "**فيفيان**". وواصلت "**كلير**" بهدوء:
– ومنذ ذلك الحين سعيت إلى القيام ببعض البحث ولقد اكتشفت أنك لم تذهبي إلى "**بور نماوث**" خلال فترة عطلة نهاية هذا الأسبوع بالذات؛ لأن والدتك لم تطلبك، وهو ما قد سبق وحدث قبل ذلك بستة أسابيع تقريباً.
سقطت "**فيفيان**" لا إرادياً على الأريكة وانخرطت في نحيب شديد؛ نحيب صبية مصدومة. سألتها وهي تتكلم بصعوبة:
– وما الذي ستعملينه الآن؟ ستحكين كل شيء لـ"**جيرالد**". أجابت "**كلير**":
– لا أدري حتى الآن. انتصبت "**فيفيان**" وأزاحت خصلات الشعر النازلة على جبينها:
– هل تودين لو أني منحتك كل التفاصيل؟
– يخيل إليّ أنه سيكون حسناً. وسردت "**فيفيان**" القصة كاملة. لم يكن "**سيريل براون**" سوى "**سيريل هافيلان**" وهو مهندس شاب كانت مخطوبة له. وإذ كانت قد أتته متاعب صحية لم يمتنع عن ترك "**فيفيان**" لكي يتزوج بأرملة عجوز ثرية. وبعد قليل تزوجت "**فيفيان**" بـ"**جيرالد لي**".
وكانت ذات يوم بمحض المصادفة قد تقابلت مع "**سيريل**" مرة أخرى وكانت المرة الأولى من لقاءات أخرى عديدة مقبلة.. وكان قد انتعش مادياً بمال زوجته. كان في طريقه إلى الوصول إلى شخصية مرموقة. وكانت قصة كلها أكاذيب بلا نهاية وكررت "**فيفيان**" بصوت مضطرب:
– إني مولعة بحبه. وكانت هذه العبارة تثير "**كلير**" في كل مرة تكررها، وفي النهاية بلغ الضيق بـ"**فيفيان**" أقصاه، فسألتها مرة أخرى:
– وبعد، إذن ماذا تعتزمين عمله؟
– ما هي نياتي؟ هذا ما تسألين عنه؟ من الصعب أن أجيبك عن السؤال، لابد لي من وقت كافٍ للتفكير.
– لن تكشفي عن أمري لـ"**جيرالد**"؟

– قد يكون من واجبي القيام بذلك.

– لا! لا!... لا.

وهكذا أخذت "**فيفيان**" تردد بصوت مضطرب وبطريقة هستيرية، أضافت:

– حينئذ سيرغب في أن يطلقني. ولن يتقبل سماع شيء مني؛ لأنه سيحصل على أدلة من هذا الفندق وسوف يُشار إلى "**سيريل**". ووقتئذ سوف تطالبه زوجته بالطلاق... وبالتالي سينهار وضعه ويعود إلى حالة الإعواز. وبالتالي لن يغفر لي أبداً... أبداً. وأضافت "**كلير**":

– أؤكد لك أن هذا الـ"**سيريل**" موضع اهتمامك لا يخبرني بشيء مهم.

– أقول لك إنه سيكرهني... يكرهني، وهو ما لا أستطيع احتماله. لا تخبري "**جيرالد**" بشيء وسأعمل كل ما تريدين، لكن لا تخبري "**جيرالد**" بشيء. فأعلنت "**كلير**" بنبرة حادة:

– لا أستطيع اتخاذ قرار على عجل. ولا يمكنني أن أعدك بشيء. وفي الانتظار يجب ألا يكون لكما لقاء بعد الآن أنت و"**سيريل**".

– لا، لا. أقسم بذلك. مفهوم. وأخيراً وعدتها "**كلير**" قائلة:

– سأعلمك بما سأكون قد قررته.

وبعد أن انتهت من الكلام، نهضت "**فيفيان**" وخرجت من المنزل على عجل وقد بدا عليها القلق وكانت في طريقها تلتفت كثيراً خلفها، وكان أن "**كلير**" بعد أن تواجدت بمفردها كانت تبدي تقززها من هذه الأوضاع. هل ستحترم "**فيفيان**" وعدها بألا تتقابل بعد الآن مع "**سيريل**"؟ بداهة لا.

في فترة ما بعد ظهر هذا اليوم، خرجت "**كلير**" للقيام بنزهة طويلة سيراً على قدميها. وكان درب يتجه إلى "**لي داون**" تلك الانحدارات الجيرية التي يكسوها العشب والتي تنتهي بشاطئ في الـ"**مانش**". وعن اليسار كانت التلال الخضراء تنخفض على هيئة تموجات قبل أن تنتهي عند مرتفع ترتطم عليه الأمواج، بعيداً جداً إلى أسفل، بينما كان الدرب يستمر في الارتفاع. كانت هذه النزهة معروفة باسم "**هو دي نون ريتور**" أي مرتفعات اللاعودة – وإن لم تشكل أية خطورة لمن يتبعون الدرب، إلا أنه كان العكس وبخلاف ذلك بالنسبة إلى المتهورين الذين

يخاطرون بابتعادهم عنها. كانت تعرجات هذه المنطقة خائنة. كانت "**كلير**" قد فقدت فيها كلبا في يوم من الأيام. كان الحيوان قد انطلق في الجري على العشب وإذا به يبلغ نقطة اللارجوع إذ إنه كان قد سقط عند نهاية الشاطئ على الصخور التي مزقت جسمه. كان الطقس في فترة ما بعد الظهر جميلاً حيث السماء صافية. جلست "**كلير**" على العشب تتأمل السماء الزرقاء. كان لابد من أن تتخذ قراراً. ماذا تعتزم القيام به بالضبط؟

كانت تشعر بالتقزز كلما فكرت في "**فيفيان**". كانت تشعر بالازدراء يملؤها. مع ذلك مهما كان النفور الذي عندها من جهتها، قررت "**كلير**" الاستمرار في العمل على تجنبها.. وعندما ستعود إلى المنزل سترسل إليها رسالة تفيدها فيها بأنها قررت التزام الصمت في الوقت الحالي... مع ذلك كانت الحياة في "**دامز إند**" تتبع مجراها، وكان السائد في الدوائر القروية أن السيدة "**لي**" لا تبدو على ما يرام. أما "**كلير هاليويل**" فكانت تزدهر. كان بريق عينيها أجمل، وكانت دائماً مرفوعة الرأس في أثناء تصرفاتها، كما كانت تبدو دائما واثقة بنفسها. كانت هي والسيدة "**لي**" تتقابلان كثيراً، وكان من الملاحظ في هذه المناسبات أن السيدة تولي اهتماماً لأبسط الكلمات الصادرة من أختها الكبرى.

أحيانا كانت الآنسة "**هاليويل**" تسترسل في بعض الملاحظات التي كانت تبدو غير لائقة – ربما كان ذلك يرجع إلى الافتقار إلى الصلة بالحديث الحالي: حديث الساعة. فكانت تتعرض مثلاً لأن تغير فجأة من رأيها في العديد من الأمور؛ الأمر الذي كان كثيراً ما يدعو إلى الشفقة... وكثيراً ما كان من الضروري التدخل فيها والعمل على تصحيحها.

لكن مع مرور الوقت وعلى مدار السنة تغيرت الأحوال، كانت "**كلير**" تواصل توجيه الملاحظات والسيدة "**لي**" كانت قد اعتادت ألا تتأثر بها. فعملت على تجديد جمالها وابتسامتها المشرقة وقد تحسن مزاجها وبالتالي كانت قد عادت إليها أساليبها الفكهة المداعبة السابقة. ثم حدث ذات صباح عندما خرجت "**كلير**" للنزهة مع كلبها أنها تقابلت مع "**جيرالد**". قال هذا الأخير:

– من بين مشروعاتنا؟ يخيل إليَّ أن "**فيفيان**" وافتك بالخبر.

– أيّ خبر؟ "**فيفيان**" لم تحدثني عن أي مشروع.

– سنسافر للخارج... لمدة عام وربما أكثر، وإن كانت "**فيفيان**" كما تعلمين لم تحب ذلك قط. تنهد وبعد لحظة بدا محبطًا. كان "**جيرالد لي**" يبدو دائمًا فخورا بأملاكه.

– وعلى أية حال لقد وعدتها بالتغيير. لقد استأجرت فيلا بالقرب من "**آلجير**". إنه مكان رائع خيالي على ما يبدو. (أبدى ضحكة مصطنعة!) شهر عسل آخر، أليس كذلك؟

كانت ستهرب منها، لم تعد "**فيفيان**" تثق بتهديداتها، فكانت تنطلق في مرح ولامبالاة وسعادة غامرة... ولقد سمعت "**كلير**" صوتها هي ذاتها – بالتأكيد أحسن بعض الشيء – ينطق بالكلمات المناسبة. يا لها من فكرة جيدة! كم كانت تحسدهما! برأي واحد وقع اختيار الكلب الصغير "**روفر**" على هذه اللحظة بالتحديد للتشاجر.. وخلال هذا الصدام، كان أيّ حديث وكأنه لم يكن.

وفي أثناء فترة ما بعد ظهر هذا اليوم جلست "**كلير**" أمام مائدة عملها وكتبت كلمة لـ"**فيفيان**"؛ إذ إن لديها خبرًا مهمًّا تود أن توافيها به وطالبتها بأن تلتقي بها في اليوم التالي عند "**هو دي نون ريتور**" مرتفعات اللارجوع.

بدا صباح اليوم التالي مشرقًا خاليًا من السحب. اتجهت "**كلير**" بخطى رشيقة متسلقة التلال المؤدية إلى المكان المتفق عليه. يا له من يوم نموذجي! كانت سعيدة لقرارها بأن تقول ما لديها من معلومة وسط الطبيعة الهادئة، تحت السماء الزرقاء أفضل من الصالون الصغير الخالي من الهواء. كانت متأثرة لـ"**فيفيان**"؛ حقًّا متأثرة. لكن كان لابد من ذلك. لمحت نقطة صفراء .. قد يقال إنها لزهرة ما. وعندما تقدمت لمحت الزهرة تتحرك على شكل "**فيفيان**" في فستان من التريكو الأصفر. كانت جالسة على العشب وركبتاها بين يديها المتقلصتين.

– صباح الخير! هكذا صاحت "**كلير**".

– الطقس رائع، أليس كذلك؟

– آه. هكذا جاء رد "**فيفيان**".

– لم ألتفت إلى ذلك. فعلاً، ماذا تريدين أن توافيني به؟ ألقت "**كلير**" بنفسها

إلى جوارها. قالت:

– المعذرة، إني منهكة لقد تعبت من التسلق مع هذه الشمس حتى وصلت إلى هنا. واصلت "**فيفيان**" بنبرة شرسة:

– هيا تكلمي أفرغي حقيبتك أيتها الصبية المعسولة؛ بدلاً من أن تتركيني أحترق على نار هادئة. وإذ بدا الضيق على "**كلير**" تراجعت "**فيفيان**" وقالت:

– أنا لم ألتفت إلى ما كنت أقول. آسفة يا "**كلير**"، أقسم لك أني آسفة وأن أعصابي مضطربة، وعندما بدأت بالحديث عن حالة الطقس خرجت عن صوابي. استطردت "**كلير**" بنبرة فاترة:

– ستقعين في النهاية في حالة اكتئاب أو يأس إن لم تراعي نفسك. أطلقت "**فيفيان**" ضحكة متعاطفة.

– أن أضل طريقي؟ لبلوغ نقطة اللاعودة؟ لا... لست من هذا النوع. فقط أخبريني الآن بما تريدين موافاتي به.

بعد لحظة صمت، بدأت "**كلير**" تتكلم وهي تنظر لا إلى "**فيفيان**"؛ إنما إلى البحر... إلى بعيد... في الأفق... قالت:

– لقد وجدت أنه من الأمانة أن أخبرك بأني لن أتمكن من التزام الصمت بشأن... ما تم في العام الماضي.

– تقصدين أنك... تقصدين أنك ستفصحين لـ"**جيرالد**" بالقصة من أولها؟

– هذا إلا إذا بادرت أنت بذلك، وقد يكون في ذلك الحل الأمثل. أبدت "**فيفيان**" ضحكة صغيرة ساخرة:

– إنك تعلمين جيداً أنه لن تكون لي الشجاعة بتنفيذ ذلك. لم تهتم "**كلير**" بتعليق "**فيفيان**" وكررت مع ذلك:

– وإن كان ذلك هو أفضل حل. مرة أخرى ضحكت "**فيفيان**" بطريقتها السابقة. ثم قالت وهي تقهقه:

– إنه ضميرك الحي – كما يبدو لي – الذي يملي عليك هذا التصرف؟ وجاء رد "**كلير**":

– وإن كان تنفيذ هذا الرأي يبدو لك غير لائق، لكن بالنسبة إلى الأمانة، هذا هو

الوضع. في الحال بهت وجه "**فيفيان**" . مالت لكي تراقب جيداً ملامح خصمها. وإذا بها تطلق صيحة دهشة:

– يا إلهي! لكنك حقًّا تعنين ما تقولين! إنك فعلاً واثقة بأن ذلك هو المنطق السليم.

– العقل يقضي بذلك.

– إذن، هنا حتماً لا. وإذا كان هذا هو الوضع كان ينبغي أن تقومي بذلك قبل الآن... لماذا لم تنفذي في الحال؟ لا تجيبي. سأخبرك به أنا؛ لأنك وجدت متعة في الاحتفاظ بسيف "**داموكليه**" فوق رأسي؛ لهذا تأخرت في التنفيذ. لقد أحببت أن أبقى فوق نار العذاب وأن تذليني.. وتتركيني فترة كافية حتى أعتاد الوضع. قالت "**كلير**" وهي تصرّ على أسنانها:

– لقد وصلت إلى حالة الإحساس بالأمان.

– ولقد تحققت من ذلك أليس كذلك؟ غير أن ذلك لم يمنعك من الاستمرار بالمتعة بإحساسك بالقدرة فقط، فجأة كنا قد أوشكنا أن نبتعد عنك وربما كنا سننعم بالسعادة. وفي هذه الحالة قد لا يكون في إمكانك منعنا من ذلك. ثم ها هو ضميرك يستيقظ؟ توقفت لاهثة. فجاء تعليق "**كلير**" وهي محتفظة بهدوئها المعتاد:

– ليس في وسعي أن أمنعك من النطق بهذه العبارات البالغة الهوس، لكنني أؤكد لك ألا صحة في كل ذلك. وإذا بـ"**فيفيان**" تفاجئها بالنظر إلى وجهها وتمسك بيدها:

– "**كلير**"... "**كلير**" أستحلفك بالله! لقد ثبت على وعدي ونفذت كل ما طالبتني به. لم أسع مرة أخرى إلى لقاء "**سيريل**"؛ أقسم لك على ذلك.

– لا شأن في ذلك بالموضوع.

– "**كلير**"... ألا تعرفين الرحمة... والتسامح؟ سأجلس تحت قدميك...

– قولي ذلك لـ"**جيرالد**" بنفسك. إذا قمت بذلك فمن الممكن أن يسامحك. فأطلقت "**فيفيان**" ضحكة ساخرة:

– إنك تعرفين "**جيرالد**" أفضل من ذلك. سوف يثور... ويرغب في الانتقام.

سيعمل على أن أعاني الكثير من ذلك... ويقوم بالإساءة إلى "**سيريل**" بكل الوسائل القذرة البذيئة. وهو ما لا أستطيع احتماله. اسمعي يا "**كلير**"... إنه في طريقه إلى قمة النجاح... لقد اخترع... الميكانيكا... وهي بالنسبة إليّ لغة هندية، لكن من الممكن أن يحقق فيها نجاحًا... وذلك بفضل مال زوجته بالتأكيد. لكنها تعاني الشك والغيرة. وإذا اكتشفت ذلك وهو ما قد يحدث في اللحظة التي يقدم فيها على الطلاق فستتخلى عن "**سيريل**"... ستدعه ينهار هو وكل عمله، كل كيانه. حينئذ سيصبح "**سيريل**" بالنسبة إليها شخصًا منتهيًا.

– أنا لا أفكر في "**سيريل**". هكذا أردفت "**كلير**". إن كل تفكيري منصبٌّ على "**جيرالد**". لماذا لا تهتمين كذلك به ولو قليلاً؟

– "**جيرالد**"! إني أشغل به مثل...(وقامت بفرقعة أصابعها) هكذا أبدي اهتمامي بـ"**جيرالد**". ولم أهتم به قط أكثر من ذلك وخاصة في وقتنا هذا. لكن بالنسبة إلى "**سيريل**" سأضحي بنفسي وبتعبير أوضح، إني مستعدة لأن أموت من أجله، أتسمعينني جيداً؟ أموت من أجله.

– كلمات جميلة، نعم! قالت "**كلير**" هذا وهي تقهقه.

– أنت تعتقدين أني لا أفكر فيما أنطق به؛ اسمعيني، إذا ما واصلت محاولاتك فسأنتحر أفضل من أن أرى "**سيريل**" معذبًا بسبب هذه القصة. وكانت "**كلير**" لم تبدُ متأثرة ولم تظهر أنها متأثرة. كررت "**فيفيان**":

– ألا تصدقينني؟

– الانتحار يحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة. حينئذ اهتزت "**فيفيان**" وكأنها ضربت:

– لقد وضعت أصبعك على الجرح. لا، وهو ما أفتقر إليه. ليته يكون هناك أسلوب آخر أسهل... قالت "**كلير**" مدندنة:

– الوسيلة السهلة موجودة وهي أمامك، وليس عليك سوى النزول على هذا المنحدر جريًا. سينتهي الأمر في أقل من دقيقتين. أتتذكرين هذا الصبي في العام الماضي؟

– نعم. هكذا أبدت "**فيفيان**" موافقتها وهي ساهمة متفكرة. هذا قد يكون

سهلاً... السهولة بمعناها... لمن تكون عنده حقًّا رغبة في... ضحكت "**كلير**" أكثر فأكثر. حينئذ وجدت "**فيفيان**" مرة أخرى القوة اللازمة للمواجهة:

– ليتنا نفرغ الأذى بالكامل. ألا تجدين أنك بعد التزامك الصمت والتكتم طوال هذه الفترة... لم يعد لك بعدها الحق في العودة إلى الموضوع؟ لن أتقابل بعد الآن مع "**سيريل**" وسأكون زوجة فاضلة لـ"**جيرالد**"... أقسم لك بذلك.. أو أنك تفضلين أن أختفي وألا ألتقي به أبداً بعد الآن هو أيضًا؟ لكِ الاختيار يا "**كلير**" أنا... نهضت "**كلير**":

– أنصحك بالذهاب إلى زوجك ومصارحته بالحقيقة وإلا... سأقوم أنا بذلك. تمتمت "**فيفيان**" وهي تطلق زفيراً:

– أرى جيداً. أنا لا أستطيع احتمال أن يلاقي "**سيريل**" عذابات تفوق الوصف... ثم نهضت هي أيضا ووقفت كمن تعمل على المقارنة بوضع الحالتين في الميزان ثم نزلت جريًا بخطى خفيفة إلى الدرب لكن هناك بدلاً من أن تتوقف عنده عبرته وأخذت تنزل المنحدر، والتفتت بعد فترة لكي ترسل إشارة بيدها إلى "**كلير**"، إشارة مرحة بالوداع. ثم واصلت مسيرتها وهي تجري مثل طفلة إلى أن اختفت عن الأنظار. وقفت "**كلير**" جامدة. وفجأة سمعت صياحًا، وهرجًا. ثم... السكون الشامل.

وبانتباه شديد نزلت إلى الدرب. بعد نحو مئة متر وجدت مجموعات من المتنزهين يقفون جامدين... يقفون والذهول بادٍ عليهم وهم يشيرون بأيديهم إلى نقطة ما. أسرعت "**كلير**" للقائهم.

– نعم يا آنسة. أحدهم سقط من أعلى الهضبة. ولقد نزل حاليًّا رجلان لاستطلاع الأمر. انتظرت. هل انتظرت ساعة أم دهراً، لقد طال انتظارها، أم أنها انتظرت فقط بضع دقائق؟ وإذا برجل يتسلق بصعوبة. لقد كان الراعي. وكانت سترته تغطي الذي كان قد تحطم في الأسفل.

– وضع بشع. هكذا قال وقد شحب وجهه إلى أقصى درجة. حمداً لله لقد كانت الوفاة مؤقتة. وإذ لمح "**كلير**" لحق بها:

– لا شك في أنها صدمة شديدة بالنسبة إليك. لقد كنتما تتنزهان معًا. هذا

ما قد اعتقدته الآن على الأقل. حينئذ سمعت "**كلير**" صوتها هي ذاتها وهي تجيب بطريقة آلية.

نعم.. كانتا قد افترقتا في هذه اللحظة بالضبط. لا، لقد كانت تصرفات "**فيفيان**" طبيعية حتى ذلك الحين. وأعلن أحد الموجودين أن السيدة كانت تضحك وتقوم بإشارات بيدها. هذا المكان كان خطيرًا جدًّا؛ إذ كان ينبغي أن تقام بطول هذا الدرب حواجز للحماية... ومرة أخرى رفع الراعي صوته:

– إنها حادثة... نعم، قطعًا حادثة. في هذه اللحظة أخذت "**كلير**" تضحك بصوت أجش وبأعلى صوتها....

– كذب! هكذا كانت تصيح والزبد حول شفتيها. إنه أنا .. أنا التي قتلتها. شعرت بمن يربت كتفها وسمعت صوتًا مهدئًا:

– هيا، هيا أفيقي. لقد كنت في حال أحسن منذ قليل. لكن "**كلير**" لم تشعر بأنها أحسن لا من قبل ولا حاليًّا ولم تشعر بالمرة بأنها في حالة أحسن. صارت هكذا على هذا الوضع الشاذ لحالة غير سوية؛ لأن ثمانية أشخاص على الأقل كانوا حاضرين المشهد الذي تدعي فيه أنها قتلت "**فيفيان لي**".

أصبحت تعيسة في أقصى درجات التعاسة إلى أن عادتها الممرضة "**لوريستون**". كانت هذه الممرضة تحصل دائمًا على نتائج مشهود لها مع الحالات المتقدمة فيما يختص باضطراب العقل. كانت هذه الممرضة دائمًا متميزة بنبرة حانية، قالت:

– لا ينبغي أن نعمل على تكديرهم، أولئك الأشخاص المساكين. صارحت "**كلير**" بأنها كانت حارسة في سجن "**بنتونفيل**". ووافتها بأن الحكم على "**كلير**" قد تم بالسجن المؤبد، ولقد تحولت الحجرة إلى زنزانة. وأعلنت "**لوريستون**" للطبيب:

– أعتقد أننا سنشعر بالسعادة التامة والسرور.. ولا أعتقد أبدًا يا دكتور أنها حالة انتحار. ليس هذا النوع. إنها حالة فريدة من نوعها، وعجيب أن أولئك هم الذين يعبرون بسهولة أكثر نقطة اللارجوع.

*****

مصادفة في عيد الميلاد المجيد

شخصيات الرواية:

- "**هيركيول بوارو**" : مخبر سري.
- "**إنديكوت**" : آنسة مسنة، وشهرتها الخالة "**إميلي**".
- "**روجيه إنديكوت**" : شقيق الآنسة "**إنديكوت**".
- "**إيفلين هاورث**" : آنسة، مدعوّة إلى الحفل.
- "**أوسكار ليفيرنغ**" : خطيب "**إيفلين هاورث**".
- "**روجيه**" : ابن عم "**إيفلين هاورث**"، مدعوّ إلى الحفل.
- "**جوني**" : مدعوّ إلى الحفل.
- "**إريك**" : مدعوّة إلى الحفل.
- "**شارلي بيز**" : زميلة "**جوني**" و"**إريك**"، مدعوّة إلى الحفل.
- "**جان**" : آنسة، مدعوّة إلى الحفل.
- "**نانسي كارديل**" : فتاة صغيرة، مدعوّة إلى الحفل.
- "**آدونك**" : مليونير وصاحب الياقوتة الحمراء.
- "**جريفز**" : رئيس الخدم.
- "**آني إكس**" : المسؤولة عن النظافة.

كانت قطع الحطب الضخمة تتوهج بابتهاج في المدفأة. ولم يكن هناك ما يغطي صوت طقطقتها سوى هرج بعض الثرثارين الذين كانوا يتبادلون الحديث بصوت عالٍ. إنهم المدعوون من الجيل الصاعد يحتفلون بعيد الميلاد المجيد. كانت الآنسة المسنة "**إنديكوت**" - الخالة "**إميلي**" عند أغلبية المشتركين - تبتسم لما يبدو منهم من أمور صبيانية.

- أراهنك يا "**جان**" على أنك لن تكوني عاجزة عن تناول ست قطع من الجلاش المحشو باللحم.

– وأنا أراهنك!

– لا، ستتوقفين قبل ذلك.

– إذا كنت تأكلين طعامك بقذارة فإنك تتصرفين من تلقاء نفسك كحيوان يلتهم بشراهة.

– هذا لا يمنع من أني سألتهم منها ثلاثة أنصبة أيضًا! ثلاثة أنصبة من الـ"دبلومات" بالإضافة إلى "بودنج" عيد الميلاد. أبدت الآنسة "**إنديكوت**" قلقها وهي تتكلم عن "البودنج":

– أرجو أن يكون جيداً؛ لأنه لم يُعد سوى منذ ثلاثة أيام، بينما "بودنج" عيد الميلاد ينبغي أن يُعد قبل ذلك بفترة طويلة. أتذكر – عندما كنت طفلة – بعض العبارات كانت تُردد في غطاس ليلة عيد الميلاد.

سادت بعد ذلك فترة صمت، بينما كانت الآنسة "**إنديكوت**" تواصل حديثها.. كان أولئك الشبان ينصتون لا من باب اللياقة، وما إن توقفت هذه الآنسة عن الكلام حتى عاد الهرج مرة أخرى بثرثرة واضحة. أطلقت هذه الآنسة زفيراً، ومن باب الملاطفة ألقت نظرة إلى الشخص الوحيد الذي يناهزها سنًّا؛ رجل قصير القامة، رأسه أشبه بالبيضة مع شارب كثيف.. وفكرت هذه الآنسة في نفسها قائلة إن مرحلة الشباب لم تعد كسابق عهدها؛ إذ إنه في الزمن الماضي كان كبار السن يتحلون بالحكمة والهدوء لكنهم حاليًّا يشعرون بأن لهم الحق في الاشتراك مع الشبان في هرجهم ويبدون كأنهم مازالوا شبانًا جذابين.

وشعرت بارتياح وهي تستعيد في مخيلتها منظر: "**جان**" الفارعة ذات بقع النمش، والصغيرة "**نانسي كارديل**" بما لها من جمال بوهيمي، و"**جوني**" و"**إريك**" وزميلتهما "**شارلي بيز**"، ثم الشقراء الرائعة "**إيفلين هاورث**"... وعندما فكرت في الأخير من الشبان، تقطب جبينها قليلاً واتجهت عيناها نحو أكبر أبناء عمها سنًّا "**روجير**" الذي كان يجلس صامتًا في أحد الأركان؛ غير مشترك في مرح المجموعة، مشغولاً بالتطلع إلى الفتاة الشقراء. اقترب "**جوني**" من النافذة وصاح:

– أنت لست في حلم. الثلج يتساقط بأجزاء ضخمة. عيد ميلاد حقيقي. ما رأيكم في أن نقوم بتكوين معركة من بكرات الثلج؟ أمامنا وقت كاف قبل وجبة

الغداء. أليس كذلك يا خالة "**إميلي**"؟

– بلى يا عزيزي؛ لأننا لن نجلس أمام المائدة قبل الساعة الثانية. الأمر الذي يذكرني بأنه ينبغي أن أهتم بإعداد موائد السفرة. وخرجت للتنفيذ خارج الحجرة. وجاء اقتراح "**جان**":

– اسمعوا! وما الرأي في القيام بعمل رجل الثلج؟

– ممكن، سنعمل تمثالا من الثلج يمثل السيد "**بوارو**". هل أنك تسمع يا سيد "**بوارو**"؟ المخبر المشهور "**هيركيول بوارو**" ذاته، بالثلج بأيدي ستة فنانين أكفاء. كان هذا الرجل القصير جالسًا في مقعده ذي المساند، يحك رأسه ويغمز بعينيه. قال:

– على شرط أن تصنعوا لي تمثالاً جميلاً يا أبنائي. إني مصر على ذلك.

– كيف؟!

اختفت المجموعة الصغيرة في دوامة، وهي تكاد توقع على الأرض عند عتبة الباب رئيس الخدم في أثناء دخوله حاملاً ظرفا على صينية من الفضة... استعاد هذا الأخير هدوءه واتجه نحو "**بوارو**"، تناول "**بوارو**" الظرف وفتحه. انصرف رئيس الخدم، وتصفح السيد "**بوارو**" الورقة مرتين ثم طواها ووضعها في جيبه. لم يُبدِ أية علامة انفعال أو دهشة أو تأثر على الرغم من أن الورقة كانت تحمل خبرًا يدعو إلى الدهشة. كانت الرسالة مكتوبة بخط شخص أمي على ورقة رخيصة وكان نصها: "لا تأكل ولا فتاتًا من الـ"بودنج"" وتمتم "**بوارو**":

– شائق جدًا وغير متوقع.

ألقى نظرة تجاه المدفأة. ورأى أن "**إيفلين هاورث**" لم تخرج مع الآخرين.. إذ كانت تطيل النظر متأملة إلى اللهيب وهي غارقة في أفكارها، كانت تدير الخاتم الذي بأصبعها في يدها اليسرى، مرارًا وتكرارًا. قال لها "**بورو**":

– أراك ساهمة يا آنستي، غارقة في حلم وهذا الحلم ليس سعيداً. أليس كذلك؟
فزعت وبادلته النظر وقد بدت غير مستقرة. فأومأ إليها برأسه مطمئنًا:

– إنه عملي يا آنسة أن أعرف كل شيء. لا، إنك لست سعيدة ولا أنا أيضًا، أنا لست سعيداً. وكان يتكلم بلهجة إنجليزية ركيكة. ثم واصل مشجعًا إياها:

– لماذا لا يصارح كلٍ منا الآخر بما يشغله أو بما يسبب له هذه المتاعب؟ بالنسبة إليَّ لقد فقدت صديقًا، صديقًا قديمًا، كان قد أبحر لكي يهاجر إلى "**أمريكا الجنوبية**"، كان هذا الصديق – عندما كنا نعيش معًا – يعمل على أن أفقد صبري وكان ذلك بسبب غبائه.. لكن حاليًّا – بعد أن رحل – لم أعد أتذكر صفاته. إنها الحياة أليس كذلك؟ والآن يا آنستي ما سبب حزنك أنت؟ إنك لست مسنة ولا وحيدة. إنك مازلت شابة وجميلة؟ وهل الرجل الذي تحبينه يحبك... آه إني أضمنه: أنا لم أكف عن مراقبته خلال النصف ساعة الذي مرّ. حينئذ علت الحمرة بشدة وجنتي الفتاة:

– إنك تفكر في "**روجيه إنديكوت**"؟ لا؛ بذلك تكون مخطئًا: أنا لست مخطوبة لـ"**روجيه**".

– لا، إنك مخطوبة للسيد "**أوسكار ليفيرنج**"، إني أعلم ذلك جيدًا؛ لكن لماذا قبلت الخطبة منه في حين أنك تحبين رجلاً آخر؟ كانت لـ"**بوارو**" طريقة في جعل الفتاة تقبل على مثل هذا الحديث، وهي أسلوبه المكون من مزيج من اللطف ونوع من السلطان.

– احكي لي كل ذلك بالتفصيل – هكذا طالبها قبل أن يختم بالجملة نفسها التي استخدمها من قبل وبالنبرة الرقيقة نفسها التي منحت الفتاة ارتياحًا – إنه عملي أن أعرف كل شيء.

– كم إني تعيسة يا سيد "**بوارو**"... في أقصى حدود التعاسة. لقد كنا قبل ذلك أثرياء جدًّا. وكان من المفروض أني سأكون وريثة ولم يكن "**روجيه**" سوى الابن الثاني. و... في وسعي أن أقسم أنه كان يعشقني ولكنه لم يصارح قط بذلك، بل بالعكس سافر إلى "**أستراليا**". وجاء تعليق "**بوارو**":

– يا لها من طريقة شاذة تلك المتبعة في حالات الزواج في هذا البلد؛ لا قواعد ولا لياقة... كله متروك للمصادفة. وواصلت "**إيفلين**":

– وكان أننا ذات يوم فقدنا كل أموالنا. ولقد عدنا أنا ووالدتي وليس لدينا مليمًا واحدًا. بدأنا بالانتقال إلى منزل صغير جدًّا حيث كنا نحصل على الكفاف فقط. وإذا بوالدتي تصاب بمرض خطير. وكان المطلوب من أجل نجاتها منه أن تُجرى لها

عملية كبرى ثم بعد ذلك تسافر إلى الخارج لكي تستفيد هناك بالجو الحار. ولما لم يكن لدينا المال اللازم لذلك، كان هذا يعني أنها ستموت. وكان السيد "**ليفيرنج**" سبق له أن طلب يدي مرة بل مرتين للزواج واعداً بالقيام باللازم لإنقاذ والدتي... وافقت... أكان في إمكاني القيام بخلاف ذلك؟ وفى بوعده. وتمت الجراحة على يد جراح مشهور وقتئذ، وبعد ذلك سافرنا إلى "**مصر**" لقضاء الشتاء هناك. كان ذلك منذ عام. نالت أمي الشفاء التام واستعادت صحتها. أما أنا فالمفروض أن أتزوج بالسيد "**ليفيرنج**" بعد عيد الميلاد المجيد. وهنا أكمل "**بوارو**":

– أرى ذلك. في هذه الأثناء وقد توفي الأخ الأكبر لـ"**روجيه**" عاد هذا الأخير إلى منزل الأسرة... لكي يكتشف أن حلمه قد تحطم. لكن لا يهم كيف يا آنستي، إنك لم تتزوجي بعد. استطردت الفتاة فوراً وبكرامة وشموخ:

– إن فتاة من أسرة "**هاورث**" لا تعدل عن كلامها يا سيد "**بوارو**". وفي أثناء ما كانت تتكلم فتح الباب لكي يظهر رجل ذو وجه أحمر وعينين متقاربتين ورأس أصلع. قال لها:

– لماذا تمكثين هنا تكتئبين وتعانين الملل يا "**إيفلين**"؟ هيا تعالي نخرج للقيام بجولة معًا.

– حسنًا جدًا يا "**أوسكار**". نهضت في لا مبالاة. عمل "**بوارو**" مثلها واستفسر بمودة:

– هل الآنسة "**ليفرينج**" ما زالت متألمة؟

– نعم ويؤلمني كثيراً أن أخبرك بأن أختي ملازمة للفراش بصفة دائمة، ومن المؤسف الاضطرار إلى قضاء ليلة عيد الميلاد في الفراش.

– فعلاً. هكذا أيد المخبر كلامها.

في لحظات كانت "**إيفلين**" قد احتذت الحذاء الخاص بالثلوج وتدثرت بإيشارب ثم خرجت مع خطيبها للتوجه إلى حديقة لا تغطيها طبقة من الثلج، كان يوم عيد ميلاد رائعًا، مع برودة محتملة وشمس ساطعة. وأما باقي المجموعة فكانت منهمكة في إعداد رجل الثلج، توقف كل من "**ليفرينج**" و"**إيفلين**" للنظر إليهم.

– ما أحلى الحب! هكذا أردف "**جوني**" وهو يقذفهما بكرة من الثلج.

– ما رأيك في ذلك يا "**إيفلين**"؟ هكذا سألتها "**جان**" في السيد "**بوارو**" كبير المخبرين، وأضافت "**إريك**":

– انتظري حتى نضع له الشارب. إن "**نانسي**" تعد خصلة لكي تكون الشارب مثلما يعيش البلجيكيون. بان بان بان.

– مخبر حقيقي بلحمه وبعظامه في المنزل أتلاحظين ذلك؟ وواصلت "**شارلي**":

– ما أتمناه حاليًا هو وجود حالة اغتيال. أردفت "**جان**" وهي ترقص:

– آه، آه عندي فكرة... أقصد للمزاح وسنرى إذا كانت ستنجح. هيّا نحاول تنفيذها وتكون مزحة مثيرة للضحك. وكان الاعتراض من خمسة أصوات في آن واحد.

– كيف يمكننا تنفيذها؟

– سوف تثير أنات مفزعة.

– لا، هنا في الخارج.

– آثار أقدام على الثلج.

– "**جان**" في قميص النوم.

– سوف نعد ذلك باللون الأحمر.

– في يدك... وستضعينه على صدغك.

– بل وقد يكون جيداً وجود مسدس.

– لكن أقول لك إن الجد والخالة "**إميلي**" لن يسمعا شيئًا. إن حجرتهما تطل على الجهة الأخرى.

– لا، لا. مع كل لن يشعر هذا العجوز بأيّ ضيق، إنه رجل مسن مرح.

– نعم، لكن أيّ نوع طلاء أحمر لامع؟

– ينبغي العثور عليه في القرية.

– لكن ليس في يوم عيد الميلاد المجيد.

– "**جان**" يمكنها القيام بدور الجثة.

– لا يهم يا عزيزتي إذا كنت ستتحملين البرد؛ لأنه لن تدوم هذه الفترة طويلاً.

– لا، بل إنها "**نانسي**" التي تستطيع القيام بهذا الدور على نحو أفضل. "**نانسي**" في بيجامتها الجذابة.

– هيّا بنا نسأل "**جريفز**" إذا كان يعرف مكان بواقي الطلاء. وهنا كانت الإشارة إلى تدفق كبير إلى المنزل.

– وذلك بملابس سوداء يا "**إنديكوت**"؟ هكذا استفسر "**ليفيرنج**" مبديًا ابتسامة تدل على عدم الرضا. ولما كان "**روجيه**" قد ابتعد فجأة عن المجموعة، لم يسمع ما قد تم.

– إني كنت أتساءل في أمور كبيرة.

– توجه إلى نفسك أسئلة؟

– كنت أتساءل بالضبط عن دور "**بوارو**" هنا.

حينئذ بدا "**ليفيرنج**" دهشًا.. لكن في تلك اللحظة بالتحديد دق جرس الدعوة إلى تناول وجبة غداء عيد الميلاد. كانت الستائر قد أسدلت في حجرة الطعام وأضاءت الأنوار المائدة المستطيلة التي كانت تزخر بأطايب الطعام المتنوعة. تصدر المائدة صاحب هذا القصر الريفي وفي مواجهته أخته أما بالنسبة إلى السيد "**بوارو**" فكان يرتدي صدارًا أحمر تحت سترته حتى يبدو مهتمًا بالمناسبة وكان ببطنه ورأسه المائل دائمًا على الجانب أقرب ما يكون إلى أبي الحناء. أسرع رب البيت بتقطيع الديوك الرومية، والكل انقضوا عليها. وسرعان ما تحولت الديكة إلى هياكل عظمية. وفي جو الصمت المؤقت كان كل الموجود على المائدة قد تم التهامه. بعد ذلك دخل "**جريفز**" رئيس الخدم حاملاً الـ"بودنج" محاطًا باللهيب الذي قوبل بالمرح وعلامات البهجة.

– أسرع يا "**جريفز**" وأعطني نصيبي؛ لأنه إن لم أحصل على هذا المضيء فلن تتحقق أمنيتي. ربما لم يلتفت أحد إلى ما بدا على السيد "**بوارو**" وهو يتفحص نصيبه وأيضًا وهو يلقي نظرة نافذة إلى باقي الأطباق. بدأ الجميع بتناول الـ"بودنج"، أما الأحاديث فكانت تجري في تلك الفترة بطريقة أكثر تحفظا، لكن فجأة أطلق رب البيت صيحة مخنوقة وهو يرفع يده إلى فمه.

– لماذا يا "**إميلي**"؟! (هكذا بدأ كلامه وهو ثائر) لماذا تركت الطاهية تضع قطعًا من الزجاج في الـ"بودنج"؟ في الحال صرخت الآنسة "**إنديكوت**" دهشة:

– قطعًا من الزجاج؟! فما كان منه إلا أن أخرج من فمه قطعة الزجاج، قائلاً:

– كان من الممكن أن تكسر لي سنًا أو أن أبتلعها وتسبب لي إصابة بالزائدة الدودية. أمسك السيد "**إنديكوت**" بهذه الآلة المؤذية ولوح بها أمام الجميع قبل أن يلقيها. وصاح:

– إنه حجر أحمر قد سقط من هذه الجيوب المعدة الموجودة في الحلوى للمفاجآت.

– هل تسمح لي؟

انتزعها منها السيد "**بوارو**" قبل أن يجد الوقت الكافي لفحصها بمزيد من الانتباه، وكان رب البيت قد وصفه بأنه حجر أحمر ضخم. وكان النور يشع من كل وجه من ضلوعه كلما حركه في يده. وهنا صاح "**إريك**":

– إذن نفهم أنك تحققت من أن هذه القطعة فعلاً هي قطعة حجر كريم من الياقوت.

– يا لك من غبي! (هكذا قالت له "**جان**" بنبرة ازدراء) إن قطعة من الياقوت بمثل هذا الحجم تقدر بآلاف... بل بآلاف الآلاف أليس كذلك يا سيد "**بوارو**"؟

– أمر عجيب لا يصدق. هكذا كانت تتعجب الآنسة "**إنديكوت**"، لكن كيف يحدث أن مثل هذا الشيء سقط في الـ"بودنج"؟

وكان هذا هو سؤال الساعة. لقد استخدمت في الرد عليه كل الاحتمالات. الوحيد الذي لم ينطق بكلمة واحدة كان السيد "**بوارو**"؛ لكنه اكتفى بالظهور بأنه يفكر في شيء آخر، تاركًا الحجر يسقط في جيبه. وبعد الغداء توجه إلى المطبخ.

ارتبكت الطاهية وتضايقت أن تجد نفسها مستجوبة من أحد مدعوي الحفل، وما هو مثير أكثر أنه أجنبي، لكنها عملت على أن تجيب عن الأسئلة على أحسن وجه وعلى قدر استطاعتها:

– كان الـ"بودنج" قد أعد قبل العيد بثلاثة أيام. يوم وصولك يا سيد. وكان الجميع قد وفدوا إلى المطبخ للاشتراك في إعداده وتحديد أمنيته. ربما إنها عادة قديمة غير موجودة عندكم في الخارج؟ وبعد ذلك تم وضع الـ"بودنج" في حمام مائي لكي ينضج، وفي النهاية وضع في الرف الأخير من دولاب المطبخ ولما كانوا قد أعدوا أكثر من طبق من الـ"بودنج"، سأل إذا ما كان هناك فرق بين هذه القطعة وغيرها، لا،

لم تكن لتعتقد ذلك، وكان الـ"بودنغ" المعد ليوم عيد الميلاد يوضع دائمًا للنضج في قالب من القيشاني المنقوش. لكن في صباح هذا اليوم كان وجه الطاهية يعبر في تلك اللحظة بكل قسماته عن المأساة، "**جليدي**" المساعدة للطاهية كانت قد ذهبت لإحضار الحمام المائي الخاص بها وجدت الوسيلة بأن تدعه يهوي ويُكسر، وهو لابد من أنه تسبب في وجود أجزاء من القالب القيشاني داخله، ولم أرسله إلى حجرة الطعام وقدمت الذي نضج في قالب من الألمنيوم عوضًا عنه.

شكرها السيد "**بوارو**" لموافاته بهذه المعلومة وترك المطبخ وهو يبتسم، وكأنه كان راضيًا بما عرفه، بينما كانت أصابع يده اليمنى تلعب في قاع جيبه بما لا نعلم ماذا.

– يا سيد "**بوارو**"... يا سيد "**بوارو**". لقد حدث شيء فظيع.

هذا ما قاله "**جوني**" في الصباح المبكر. في الحال جلس السيد "**بوارو**" على سريره. وكان يضع على رأسه طاقية (بونيه) من القطن. ولا شك في أن التناقض بين مركزه وتصرفه المضحك هذا وإذا به يضحك بطريقة هستيرية. وكانت تُسمع في الخارج أصوات... وواصل "**جوني**":

– أسرع وانزل معي. لقد قُتل أحدهم. هكذا أضافت. أبدى "**بوارو**" موافقته بقوله:

– ها ها. ها ما هو خطيرا!

نهض واغتسل على عجل ثم نزل بعد "**جوني**". كان جميع المدعوين وكلهم من الجيل الصاعد مجتمعين حول الباب المؤدي إلى الحديقة، والتأثر الشديد بادٍ على كل منهم. تقدمت "**جان**" خطوة ووضعت يدها على كتف السيد "**بوارو**". قالت وهي تشير بإبهامها من الباب المفتوح على مصراعيه:

– انظر! صاح السيد "**بوارو**":

– يا إلهي! وكأننا أمام مشهد مسرحي.

ولم يكن هذا التعليق غير لائق. كان الثلج قد تساقط بغزارة طوال الليل والمنطقة كلها غارقة في البياض إلى أن ظهرت فيه بقعة حمراء. إنها "**نانسي**" ترقد جثة هامدة على الثلج. تسترها فقط بيجامتها الحريرية. كانت ترقد وقدماها عاريتان وذراعاها متباعدتان. أما رأسها فكان يميل على الجنب مخفيًّا في كتلة شعرها

الكثيف الأسود. ترقد مثل الميت.

تقدم "**بوارو**" في الثلج، ولم يتوجه نحو جثمان الفتاة، مفضلاً البقاء في الممر، وكانت مجموعتان من آثار أقدام لرجل وسيدة تقودان إلى المكان الذي تمت فيه المأساة. وآثار أقدام الرجل وحدها هي التي كانت تقود إلى المنزل، وقف "**بوارو**" على طرف الممر يربت ذقنه شارداً غارقاً في التفكير. صاح فجأة:

– "**أوسكار ليفيرنج**" هو الذي خرج من المنزل.

– ما هذا يا إلهي؟! فكان اضطرابه وتوتره يتعارضان مع السكون الجنائزي البادي على كل الآخرين عندما رأوا المخبر. وتمتم السيد "**بوارو**":

– يبدو لي أنه حادث اغتيال. مرة أخرى لحقت بـ"**إريك**" نوبة سعال عنيفة.

– لابد من الإسراع بالتصرف وعمل أيّ شيء، هذا ما أبداه الوافد الجديد. ما الذي نستطيع عمله الآن؟

– أنا لا أرى سوى تصرف واحد ينبغي تنفيذه. استدعاء الشرطة.

– أوه! هكذا صاح الجميع. حينئذ مسح السيد "**بوارو**" الجماعة الصغيرة بنظرته الفاحصة:

– أنا لا أرى حلاً آخر. إنه العمل الوحيد. من الذي سيقوم بذلك؟ بعد فترة صمت تقدمت "**جان**".

– دعنا والخدع. بشرفي يا سيد "**بوارو**" – وأرجو ألا تتحامل علينا بشدة – إنها تمثيلية عملوا على القيام بها معًا... لكي يكذبوا عليك وكل ما تعمله "**نانسي**" هو التمثيل. تطلع إليها السيد "**بوارو**" غير متأثر ظاهراً، باستثناء العينين اللتين ترمشان.

– لقد أردتم أن تحولوا صورتي.. هكذا وتشوهوا شكلي. هل هذا من اللياقة؟ هكذا سألهم دون أيّ انفعال وبهدوء تام.

– إني حقًا خجلى أقسم لك، فعلاً كان لا ينبغي القيام بذلك قط. إنه دليل على عدم اللياقة فعلاً. وأقدم إليك اعتذاري.

– ليس مطلوبًا منكِ أن تقدمي إلي اعتذارًا. هكذا أردف "**بوارو**" بصوت قد تغير فجأة. فالتفت "**جوني**" وصاح:

– انسحبي يا "**نانسي**"، لن تكملي اليوم هنا! غير أن الجالسة على الأرض وقد فزعت لم تتحرك.

– انهضي. هكذا كرر بقوة أكثر وبصوت عال، إلا أن "**نانسي**" لم تتحرك قط وإذا بإحساس فجائي بالاستياء يتملك الشاب. فاستشهد بـ"**بوارو**":

– ما الذي... ما الذي يحدث؟ لماذا لا تنهض؟ قال له "**بوارو**" بنبرة جادة:

– تعال معي.

وتقدم بخطى واسعة على الثلج. وبحركة من يده أشار إلى الآخرين بالتراجع وكان حريصاً على عدم تغيير البصمات السابقة. كان الشاب يتبعه غير مصدق ومع ذلك كان متأثراً، وإذا بـ"**بوارو**" يجثو على الثلج ويشير إلى "**جوني**":

– أمسك بيدها وعد نبضها. تقدم الشاب ومال إلى الأمام قليلاً، ثم تراجع وهو يصرخ. اليد والذراع في حالة برودة ولا وجود لنبض واضح.

– لماذا؟ هكذا تمتم. إني أتساءل لِمَ ذلك؟

بعد ذلك مال على جسد الفتاة وفرّق أصابع اليد الأخرى وكانت متقلصة على شيء ما. حينئذ أطلق الشاب وهو صيحة دهشة؛ في كف "**نانسي**" كانت قطعة الحجر الحمراء تشع بكل أضوائها. صاح "**بوارو**" بينما كانت يده – بسرعة البرق– تدخل إلى جيبه لكي تخرج فارغة. تمتم "**جوني**" ساهماً:

– إنه حجر الياقوت الأحمر وهو من المشحونات المجانية. وبينما كان رفيقه ينحني لفحص الخنجر والثلج الملطخ بلون أحمر، واصل بصوت عالٍ:

– ليس دماً يا سيد "**بوارو**". إنه طلاء. انتصب "**بوارو**"، وقال بكل هدوء:

– نعم، ليس سوى طلاء.

– لكن كيف... وإذا بصوت الشاب يختنق أكمل "**بوارو**" له الجملة:

– كيف قتلت؟ هل أكلت أو شربت شيئاً صباح اليوم؟ وفي أثناء ما كان يتكلم كان قد عاد إلى الممر و"**جوني**" على عقبه. أجاب الشاب:

– إنها لم تتناول سوى قدح شاي. كان السيد "**ليفيرنج**" قد أعده لها لأن عنده في حجرته موقداً يعمل بالكحول. ولما كان صوت "**جوني**" مرتفعاً سمع "**ليفيرنج**" الكلمات الأخيرة. قال:

– يجب أن يكون مع كل شخص موقد يعمل بالكحول. إنه الشيء اللازم والعملي في الدنيا، ولقد حرصت أختي على اقتنائه في أثناء فترة إقامتها هذه؛ لأنها لا تميل إلى إزعاج القائمين بالخدمة من حين إلى آخر. وكان أن نظر السيد "**بوارو**" قد وقع بمحض الصادفة على قدمي السيد "**ليفيرنج**" وكان بهما نعل "**مبتوفلي**". فتمتم:

– أراك قد خلعت حذاءك. ألقى "**ليفيرنج**" إليه نظرة قاسية، وبأنين قالت "**جان**":

– وبعد يا سيد "**بوارو**" ماذا سنعمل؟

– ليس من حل أمامنا إلا استدعاء الشرطة، كما سبق واقترحت يا آنستي. فصاح "**ليفيرنج**":

– سأقوم بذلك. والاحتذاء بالبوت لن يستغرق سوى ثوان وبالنسبة إليكما من الأفضل ألا تمكثا هنا في البرد. قال هذا واختفى داخل المنزل.

– كم أنه منتبه هذا السيد "**ليفيرنج**"! (تمتم "**بوارو**" بصوت خافت) ألن نعمل بنصيحته؟

– ألا ينبغي أن نوقظ الأب والجميع؟

– لا (أجابه "**بوارو**") لا داعي إلى ذلك؛ لأنه غير مُجْدٍ. وحتى وصول الشرطة يجب ألا يتم لمس أيّ شيء. وأيضًا لماذا لا نعود ونحتمي بالمنزل. أين سنجتمع؟ في المكتبة؟ في الواقع عندي قصة صغيرة أود أن أحكيها لك، قد تلهيك قليلاً عن هذه المأساة. وسّع الخطوة وتبعاه:

– إنها قصة حجر ياقوت. هكذا بدأ كلامه وهو يتعمق في مقعد وثير ذي مساند. لقد كان حجرًا فوق مستوى الشهرة يمتلكه شخص أكثر من أن يكون معروفًا.. لن أذكر لك اسمه، لكنه يعد من كبار هذا العالم، "**آدونك**" تصور أن هذا الرجل العظيم وصل إلى "**لندن**" منذ فترة قصيرة.. لكن بقدر ما هو كبير على قدر أنه وصلت به درجة الغباء إلى أن تخدعه فتاة جميلة موقعة إياه في فخ، إذا كانت لا تهتم بشخصه بقدر ما كانت تهتم بما يمتلك. وكان أن اختفت ذات صباح حاملة الحجر الذي كان يحمل العديد من قصص الأسرة المالكة منذ أجيال.

والآن أدعك تتخيل مدى ما حدث لهذا الرجل من ضيق وحرج. هذا الذي كان جديرا به أن يتزوج بإحدى الأميرات الشريفات ولا ينبغي أن يكون هناك ما يشوه سمعته، أو إثارة الشكوك حوله، ولما كان يستحيل عليه الالتجاء إلى الشرطة لجأ إليّ أنا "**هيركيول بوارو**"؛ ليتك تعيد إليّ الحجر الكريم الخاص بي. هذا ما طلبه مني. لعلمك إنه مع الفتاة الجميلة ولهذه الأخيرة أخ ولكليهما العديد من مواقف سابقة في الاحتيال. هذا وإني أعلم أين سيقضون ليلة عيد الميلاد... وبفضل ما كان للسيد "**إنديكوت**" من لطف فقد دعيت أنا أيضًا للعيد.. غير أن الخوف بلا داع تملك هذه الشابة عندما علمت خبر وصولي؛ لأنها ذكية وتدرك أني أتعقب الحجر الكريم. وكان عليها إذن أن تضعه فوراً في مكان آمن. وأين يتوقع أنها ستخفيه؟ في طبق "بودنج"؛ نعم جدير بك أن تبدي كل عبارات التعجب الممكنة. ولقد قُبلت للاشتراك في عمل هذه الحلوى التي كانت تشترك فيها كل الفتيات. ووضعته في القالب الألمنيوم الذي يختلف عن باقي القوالب. ومن باب المصادفة وتدخل القدر أن هذا القالب هو الذي قُدِّم لليلة عيد الميلاد! الأمر الذي أصاب الجميع بالذهول.

– ثم – هكذا واصل البلجيكي – قررت الدخول إلى الفراش (أخرج ساعته ونظر إليها) بدأ التوتر يشمل كل الأسرة. وكان من الممكن أن السيد "**ليفيرنج**" يستدعي لنا الشرطة، ألا ترى معي ذلك؟ وأتوقع أن أخته سوف تسافر معه. تطلع "**إيفلين**" إلى "**بوارو**" وانتصب فوراً وهو يصرخ:

– وأراهن أنا كذلك على أنه في هذه الحالة قد لا يعود. ولما كانت حياة "**أوسكار ليفيرنج**" وأخته قد بلغت الاضطراب أقصاه، ولم يعد أمامهما منفذ أو مخرج سوى الذهاب إلى الخارج، والعمل هناك بأسماء مستعارة على تنمية مواهبهما.. ولقد عملت على جعله يبعد عنه فكرة أنه قد يمكنه امتلاك حجر الياقوت بينما نكون نحن قد عدنا إلى المنزل وأن يذهب هو لاستدعاء الشرطة ولما كان موضع اتهامنا له بجريمة القتل، لم يكن أمامه سوى الهرب.

– هل قتل "**نانسي**"؟ هذا ما سألته "**جان**". وكان "**بوارو**" قد نهض مبديًا اقتراحه قائلا:

– ليتنا نعمل على إلقاء مزيد من الضوء على هذه النقطة في موقع الجريمة ذاته. أشار لهم إلى الطريق واتبعوه. وفور وصولهم عند عتبة باب المنزل، أصيبوا جميعاً بشيء من الذهول. لا وجود لأيّ أثر للجريمة. لم يكن هناك سوى الثلج الخالي من أية آثار.

– عجبا، هل كلنا بالإجماع كنا نحلم؟

– أمر يدعو فعلاً إلى الدهشة. هكذا جاءت كلمات "**بوارو**" مؤيدة قوله. ها إننا نواجه غموض اختفاء الجثة. هكذا أضاف وبعينيه شعاع مكر. وإذ ساورها الشك، سألته "**جان**" :

– يا سيد "**بوارو**" ، ألم... ألست... أقصد ألم تخدعنا جميعًا منذ البداية؟ آه أعتقد أنه نعم!!

– إنها حقيقة يا عزيزتي الصغيرة. كنت أعلم كل شيء عن خطتكم؛ لذلك كوّنت هجومًا معاكسًا على طريقتي... آه! ها هي الآنسة "**نانسي**"... أتعشم أن تكون قد استعادت استقرارها بعد مساهمتها في هذه المسرحية. وفعلاً كانت "**نانسي كارديل**" بلحمها وعظامها، وهي بكامل صحتها.

– ألم تصابي ببرد؟ هل شربت من المشروب الدافئ الذي أرسلته إليك في حجرتك؟ هكذا استفسر "**بوارو**" :

– لقد تناولت منه بُلعة وكانت أكثر من كافية. وهأنذا على أحسن حال، ألم أُجد التصرف يا سيد "**بوارو**"؟ آه، مازالت ذراعي تؤلمني من تأثير هذا الضاغط الذي وضعته لي.

– لقد كنت مثيرة يا آنستي الصغيرة. لكن أليس علينا تقديم بعض التفاصيل أو الإيضاح إلى الآخرين؟ إنهم مازالوا يسيحون في الضباب. هأنذا يا أبنائي الأعزاء قد تقابلت مع الآنسة "**نانسي**" لكي أخبرها بأني كنت أعلم كل شيء عن خدعتكم الصغيرة وسألتها إذا كانت توافق على الأحلي بدور محدد. ولقد أجادت التصرف. لقد جعلت السيد "**ليفيرنج**" يعد لها قدحًا من الشاي وتصرفت لكي تترك آثار خطواتها على الثلج؛ لذلك عندما حانت اللحظة التي كان ينبغي أن تبدو ميتة كانت بيدي وسيلة إرهابه. ما الذي حدث يا آنستي عندما عدنا إلى المنزل؟

– لقد نزل بسرعة مع أخته، وانتزع الحجر الياقوت من يدي وهربا زاحفين على بطنيهما.

– لكن أخبرنا يا سيد "**بوارو**". وماذا عن الحجر الياقوت؟ هكذا استفسر "**إريك**". ليتك لا تخبرنا بأنك تركتهما يهربان معك! أجاب بصوت خافت:

– مازال في إمكاني إعادته. وأردف "**جوني**":

– لكن هذا الأمر لا يُصدق. أن تدعهما يهربان ومعهما الحجر الياقوت. لكن "**جان**" كانت خبيرة أكثر، فقالت:

– إنه يدفعنا أكثر فأكثر إلى السير. أليس كذلك يا سيد "**بوارو**"؟

– ابحثي في جيبي الأيسر يا آنستي. ووضعت "**جان**" يدها فيه وأخرجتها وهي تطلق صيحة ظفر وتلوح بحجر الياقوت الذي كان يشع بكل الألوان والأضواء. وهنا استطرد "**بوارو**" قائلاً:

– لاحظي أن الحجر الآخر كان من الزجاج وكنت قد أحضرته معي من "**لندن**".

– هل سبق لك مشاهدة إنسان بمثل هذا الذكاء؟ هكذا علقت "**جان**"، وجاء سؤال "**جوني**":

– غير أنه هناك خدعة أخرى لم تذكرها لنا، هل هي "**نانسي**" التي باعت خصلة الشعر؟ هز "**بوارو**" رأسه.

– إذن كيف علمت ذلك؟ أجاب "**بوارو**" وهو مبتسم لرؤية "**إيفلين هاورث**" و"**روجيه إنديكوت**" يبتعدان متشابكي الأيدي:

– إنها مهمتي بأن أعلم كل شيء.

– نعم، لكن أفصح لنا به على الرغم من ذلك. أفصح لنا به، أتوسل إليك. يا سيدي العزيز "**بوارو**"، أخبرنا به من فضلك! وكان حينئذ محاطًا بوجوه متحمسة.

– هل أنتم متمسكون حقًّا بأن أفصح لكم عن هذا اللغز؟

– نعم.

– لا أعتقد أني أستطيع ذلك.

– لماذا؟

– صدقوني؛ لأنكم ستصابون بخيبة أمل.
– أخبرنا من فضلك كيف تمكنت من معرفته؟
– حسنًا، اسمعوا، لقد كنت في المكتبة...
– نعم.
– وأنتم كنتم في هذه الأثناء تناقشون خطتكم تحت النافذة، ولما كانت النافذة مفتوحة. هنا علق "**إيريك**":
– هذا كله؟ يا له من غباء!
– أليس كذلك؟ أردف "**بوارو**" وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه.
– لا يهم – هكذا أبدت "**جان**" رأيها مسرورة – يكفي أننا علمنا الآن كل شيء. وتمتم "**بوارو**" سرًّا وهو عائد إلى المنزل: "وما القول إني لا أعلم كل شيء... أنا من بطبيعة مهنته ينبغي أن يُلم بكل شيء". وللمرة العشرين تقريبًا يتناول من جيبه الورقة؛ "تناول قدرًا يسيرًا من الـ"بودنج"".

هز رأسه مرتابًا. وفي اللحظة نفسها تحقق من وجود صوت لهث في مستوى قدميه. نظر إلى الأرض واكتشف مخلوقة صغيرة في مريلة ذات زهور (منقوشة) كانت تمسك بجاروف بيدها اليسرى وباليمنى مقشة صغيرة. استفسر "**بوارو**":
– من أنت يا بنتي؟
– "**آني إكس**" في خدمتك يا سيدي، أنا مساعدة سيدة النظافة. و – بإلهام مفاجئ – أخرج "**بوارو**" الورقة من جيبه وناولها إياها قائلاً:
– أنت التي كتبت ذلك يا "**آني**"؟
– كنت لا أقصد سوءًا يا سيدي. ابتسم لها وواصل:
– بالتأكيد لا... لكن ليتك تحكي لي كل شيء.
– كانا الاثنان... السيد "**ليفيرنج**" وأخته. ولم يكن هناك من يحتملهما... سمعتهما من الباب يتهامسان ففهمت أنهما كانا يريدان أن يقتلاك بوضع السم في الـ"بودنج" المعد لليلة عيد الميلاد. وكنت وقتئذ عاجزة عن معرفة كيف أتصرف. والطاهية كانت هي أيضًا لا تعلم شيئًا. ففكرت في كتابة هذه الورقة ووضعها في الصالة بحيث يراها السيد "**جريفز**" ويعطيها لك. وتوقفت "**آني**"

متعبة وشرع "**بوارو**" يتأملها لحظة. قال لها:

– إنك تكثرين من قراءة روايات كثيرة، لكنك تتمتعين بقلب طيب، كما أنك على قدر كافٍ من الذكاء، وسوف أرسل إليك عندما أعود إلى "**لندن**" كتابًا عن فن الحياة وسير القديسين وكتابًا آخر عن دور المرأة الاقتصادي. وترك "**آني**" وهي تلهث أكثر فأكثر وعزم على التوجه إلى المكتبة، لكنه لمح من الباب الموارب رأسًا أسمر ورأسًا أشقر كل منهما قريب من الآخر، تسمّر مكانه. وفجأة إذا بذراعين تلتفان حول عنقه.

– ليتك تتوقف معي لحظة تحت الصاري. هكذا طالبه "**جان**". وتوسلت إليه "**نانسي**".

– ومعي أنا كذلك. وافق السيد "**بوارو**" ونفذ الطلب ولم يندم على ذلك... لم يندم حقًّا لحظة واحدة.

*****

الإله المنفرد

شخصيات الرواية:

- "**فرانك أوليفيه**" : أعزب متقاعد.
- "**جريتا**" : أخت "**فرانك أوليفيه**".
- "**توم هارلي**" : رفيق قديم لـ"**جريتا**".
- "**تيد**" : طفل في الخامسة من عمره.
- "**موللي**" : طفل صغير.

كان موضوعًا على أحد الأرفف في المتحف البريطاني بمفرده، ومتروكًا وسط مجموعة من الآلهة. كان من الواضح أنها أكثر أهمية. كانت هذه الشخصيات المصفوفة على جدران القاعة الأربعة.وهي من طبقة متميزة تبدو وكأنها تشعر بأفضليتها، كما كان مدونا على قاعدة كل منها – وهي متينة الإعداد – بيانات عن المنطقة والشعب الذي كان قد تشرف باقتنائها. كانت كلها آلهة لها مكانتها بين طبقات المجتمع ومعروفة دون حاجة إلى التذكرة بها. وكان الإله الصغير منفرداً في ركنه بعيداً عن صحبتها. كان منحوتًا بطريقة بدائية في حجر رمادي، تكاد ملامحه أن تتآكل من تأثير عوامل الزمن فيها. كان جالسًا في عزلته هذه وكوعاه على ركبتيه ورأسه بين يديه، مسكين أيها الإله المنفرد الصغير المنفي في أرض غريبة.

ولم تكن عليه أية كتابة تشير إلى البلد الذي كان منتميًا إليه. كان تائهًا، خاليًا من الإجلال والشهرة. ولم يكن هناك شخص واحد يلمحه ويتوقف لكي يتعطف عليه بنظرة. لماذا تم إعداده ؟ كان هذا الإله مجهولاً ومنسيًّا في أحد الأركان، وكان على جانبيه إلهان مكسيكيان صقلتهما القرون، وملامحهما واضحة وعلى شفاههما ابتسامة ساخرة وكأنهما يسخران من البشرية. كان هذا الإله الصغير ذو اليدين المغلقتين، معجبًا بنفسه، وفي حالة معاناة شديدة لا شك في أنها معاناة

انتفاخ الذات المتناهي، لكن الزوار كانوا يتوقفون أحيانا لكي يلقوا إليه نظرة لا تتجاوز كونها أنهم يقارنو من حيث التناقض بين إحساسه الغبي بالكمال وبين لا مبالاة رفيقيه المكسيكيين.

أما بالنسبة إلى الإله الصغير التائه في هذه الأماكن، فهو كما هو مازال وحده واضعًا رأسه بين يديه كما هو إلى أن تم المستحيل ذات يوم وتم اكتشافه.... معجب.

– هل لي بريد، أنا شخصيًّا؟ هل عندك لي خطابًا؟ ولما فحص البواب مجموعة الخطابات التي عنده أجابه بالنفي:

– ليس لك أيّ خطاب عندي يا سيدي.

أطلق "**فرانك أوليفيه**" زفيرًا وهو يخرج من النادي الذي يتردد إليه. لا يوجد خطاب باسمه؛ لأن قليلين هم الذين يراسلونه. لقد شعر بعد عودته من "**بريماني**" في فصل الربيع بالوحدة التي يحياها يوميًّا.

بعد أربعين عامًا بالضبط، كان قد قضى الثمانية عشر عامًا الأخيرة من حياته في التجوال حول العالم، مع قضاء فترات عطلة قصيرة في "**إنجلترا**" وكان لا بد له أن يعتزل العمل لكي يخلد إلى الراحة ويستعيد ذكرياته فيكتشف إلى أيّ حد كان قد قضى حياته في الوحدة .

في الواقع، كانت له أخت تسمى "**جريتا**" وهي متزوجة برجل دين في "**يوركشاير**" ، تتحمل مسؤوليات كبيرة تتطلبها شؤون الكنيسة. من الطبيعي أن تحب "**جريتا**" شقيقها الوحيد وبداهة كانت لا تجد إلا قدرًا يسيرًا تقضيه معه. وكان لها أيضًا رفيق قديم يسمى "**توم هارلي**" متزوجًا بفتاة رائعة تفيض نشاطًا وحبًّا للحياة ومنطقًا سليمًا... وكان "**فرانك**" يخشاها سرًّا. وكثيرًا ما كانت تكرر له بشتى الأساليب أنها غير متقبلة أنه يتخذ أسلوب شاب أعزب عجوز مشاغب، وأنه لا يكف عن البحث عن فتيات حسان، وللأسف كان "**فرانك أوليفيه**" لا يعرف كيف يعامل أو بما يخاطب تلك الفتيات اللاتي كن يتعلقن به لفترة قبل اكتشافهن أنه غير صادق، أو أن هذا الموقف بلا هدف.

مع ذلك لم يكن في الحقيقة غير اجتماعي بمعنى الكلمة؛ إذ كان متعطشًا وتواقًا

إلى المصاهرة وإلى الصحبة كما كان قد تحقق منذ عودته إلى "**إنجلترا**" من تقدم حالات إحباطه. كانت حياته قد انقضت في الأسفار لذلك لم يكن متوافقًا مع عصره. كان يقضي أيامه في التجوال بلا هدف متسائلاً عما سوف يقوم به في الدقيقة التالية، كما حدث أنه خلال هذه الأيام توجه ذات يوم إلى المتحف البريطاني ولما كان يهتم كثيراً بالعروض الشرقية، وكانت هذه الزيارة سببا في أن بصره وقع بالمصادفة على الإله المنفرد الموجود في هذا المتحف لقد انجذب وقتئذ بسحره الذي وجد فيه شخصًا ضالاً تائهًا مثله في بلد لا يعرفه. واعتاد التردد إلى المتحف لمجرد أن يتطلع إلى هذا التمثال الصغير المنحوت في حجر رمادي، التمثال المقيم على رف في ركن منعزل من القاعة.

كانت قد وصلت به الدرجة إلى الشعور بأنه يستحق امتلاك هذا التمثال، هذا الصديق الصغير. كان في ذلك الإحساس تظهر رغبته في الامتلاك. كان هو الذي اكتشف الإله المنفرد.

لكنه بعد إحساسه بفشله الأول. ابتسم لنفسه؛ لأن المعجب الثاني لم يكن سوى مخلوقة قدر أنها – وكانت شابة في مقتبل العمر – لا تتجاوز العشرين عامًا بكثير وهي شقراء، ذات عينين زرقاوين، وشفتاها تظهران ابتسامة رقيقة. أما القبعة التي كانت على رأسها فكانت توحي بما لها من سمات قروية. ولقد كانت بداهة شابة من المجتمع الراقي ومازالت تعيش حياة البؤس، وفي الحال قرر في ذهنه أنها مسؤولة وحيدة في الدنيا. وبعد قليل اكتشف أن أيام زيارتها لهذا الإله كانت أيام الثلاثاء والسبت من كل أسبوع وأنها كانت تصل بانتظام في تمام الساعة العاشرة مع فتح المتحف. وكان يشعر بأن الأيام التي كانت الآنسة الصغيرة المتفردة تأتي فيها – كما كان يدعوها في ذهنه – لا تحسب من عمره.

ولا شك في أنها هي أيضًا تهتم به وتميل إليه بالنسبة نفسها وإن كانت تحرص على إخفاء مشاعرها هذه. كان واضحًا أن ثمة شعوراً مشتركًا ينمو تدريجيًا داخلهما، وحقيقة الأمر أن هذا الشخص كان خجولاً جدًّا. كان لا يجد العبارات التي يمكنه أن يفصح لها بها عن حقيقة مشاعره.

لكن القدر بما له من جانب طيب – إن لم يكن الإله الصغير – ألهمه أو على

الأقل هكذا كان تفكيره. وإذا به يبتهج لعثوره على منديل سيدة، رقيق من الباتيستا والدانتيل، كاد لا يجرؤ أن يلمسه، ولحق بها في قاعة الآثار المصرية:

– المعذرة. هل هذا يخصك؟ تناولت الآنسة الشيء الذي بيده وفحصته بعناية:

– لا. ليس لي. أعادته له وهي تضيف:

– إنه جديد والسعر مازال عليه. ولكي يبرىء نفسه شرع يمنحها بعض المعلومات.

– لقد أخذته من تحت هذه الخزانة، هناك بعيداً بجوار آخر قائمة. وخيل إليه أنه وجد التفصيل الكافي فقال:

– لذلك – ولأني رأيتك واقفة في هذا المكان – حكمت أنه منديلك. كررت:

– ليس منديلي. ولما شعرت بأنها كانت جافة في ردها أضافت:

– شكراً. ولما أراد ألا يبدو مهزوماً، بذل مجهوداً آخر لكي يستفيد من الفرصة المقدمة إليه:

– كنت لا أعلم – حتى رأيتك هنا – أن هناك من تأتي غيرك لإلهنا الصغير المنفرد. وإذ تخلت عن تحفظها معه ، سألته بشغف:

– وأنت أيضاً تسميه هكذا؟

ولو كانت لاحظت أنه استخدم صيغة الجمع عند ذكر هذا الإله (إلهنا) ما صارحته بذلك. لقد ظهر التعاطف بينهما. من جديد ساد صمت، لكنه كان في هذه المرة وليد التواطؤ. وكانت الآنسة المنفردة هي التي بادرت في هذه المرة بهذا التواطؤ. انتصبت مظهرة شيئاً من الكرامة قد تكون مضحكة بالنسبة إلى فتاة قصيرة القامة وأعلنت ببرود:

– يجب أن أنسحب. طاب صباحك يا سيدي. ثم بعد انحناءة خفيفة برأسها، ابتعدت بجمود.

كان ينبغي لـ "**فرانك**" – لو أنه وضع هذا التصرف في ميزان المفاهيم – أن يعتبر نفسه مرفوضاً، لكنه اكتفى بأن قال سراً: "يا صغيرتي العزيزة".

ومع ذلك كان سيندم – بعد قليل – على تهوره. إن قدمي آنسته الصغيرة لم تطآ أرض المتحف طوال عشرة أيام. الأمر الذي جعله يشعر باليأس، لقد أخافها.

لقد كان شقيًّا تعيسًا، فظًّا. لن يراها بعد الآن. وكان أنه – في يأسه هذا – لم يغادر المتحف البريطاني طوال اليوم. ومن يدري ربما غيرت مواعيد زيارتها للمتحف! في هذه الأثناء تمكن من الإلمام بكل أقسام المتحف وبكل التفاصيل المدونة على التماثيل. ولما كان يطيل النظر إلى مختلف المعروضات كان شرطي المتحف يراقبه بعين الشك. لكن حدث أن صبره كوفئ.. لقد عادت، وقد بذلت أقصى جهدها لإظهار تحفظها. استقبلها بفرح. وبادرها بقوله:

– صباح الخير. إن لك زمانًا لم تحضري إلى المتحف.

– صباح الخير. كانت قد نطقت بهذه الكلمة ببرود تام، لكنه كان قد أصبح قادرًا على كل شيء. كان قد تجرأ على مواجهتها بعينين متوسلتين. وقال:

– هل سترفضين أن نكون صديقين؟ إني وحيد في "**لندن**"... بل ووحيد في الدنيا، وأعتقد أنك أنت كذلك، وينبغي أن نكون صديقين من عمل إلهنا الصغير بتقديمنا الواحد إلى الآخر. كانت النظرة التي ألقتها إليه توحي بأنها مقتنعة جزئيًّا، لكن ظل ابتسامة مترددة كان باديًا على شفتيها:

– إنه هو من قام بذلك؟

– بداهة! وكانت هذه هي المرة الثانية التي يستخدم فيها ثقته بنفسه وبناء عليه قالت الفتاة بلهجة متعالية نسبيًّا:

– حسنًا جدًّا. قال مصححًا:

– بل ممتازًا ورائعًا. غير أنه كانت هناك هزة في صوته دفعت الفتاة إلى أن تلقي إليه نظرة إشفاق.

وهكذا كانت بداية صداقتهما العجيبة. كانا يتواجدان مرتين في الأسبوع عند مذبح إله صغير وثني. في البداية كان حديثهما يقتصر عليه وحده. وكان موضوع المناقشة يدور حول أصله. كان الرجل يصر على منحه كل الصفات العداونية والدامية. كان يصفه بأنه رعب لأمته، المبجل من شعبه المرتعب والمرتجف. وكان في ذلك التناقض بين عظمته الماضية وموقفه الحالي.

لكن "الآنسة المنفردة" كانت ترفض تأييد مثل هذه النظرية، كانت تصر على أنه كان بطبيعته إلهًا صغيرًا لطيفًا. كانت تشك في أنه قد يكون فيما مضى متجبرًا.

على أيّة حال كانت ترى فيه إلهًا صغيراً رقيقًا، وكانت تعبده ولا تحتمل فكرة وجوده وبقائه الدائم هنا وسط تلك الوحوش التي تسخر منه. وكانت الآنسة الصغيرة قد أحست بالإرهاق بعد انتهائها من الدفاع عن وضع هذا الإله الصغير. ثم بعد الانتهاء من الحديث عن هذه النظرية، تناولا الحديث عن ذواتيهما. ها هو قد اكتشف أن ما كان يتوقعه كان صحيحًا. نعم، لقد كانت مدبرة بيت في أسرة تقيم في "**هامبستيد**" أما عن الأبناء الذين كانت تعتني بهم وتخدمهم: بالنسبة إلى "**تيد**" الذي لم يكن حقًّا غير مطيع وهو في الخامسة من عمره، إنما كان غاية ما في الأمر أنه ولد (عفريتًا) شقيًّا؛ وأما التوأمان فقد كانا فعلاً متعبين غير محتملين، وأما بالنسبة إلى "**موللي**" فكان لا ينفذ أبداً ما يُطلب منه، لكنه كان صغيراً وبالتالي كان لا ينبغي التحامل عليه.

– إن أولئك الأولاد يتعبونك. هكذا قال لها. أجابت:

– لا بالمرة. إني قاسية وحازمة معهم. علق وهو يضحك:

– يا إلهي هذا ما كان ينبغي أن يُسمع. لكن سرعان ما حصلت على اعتذار عما أبداه من شكوك. كما كان مقابل ذلك يمنحها قليلاً من بعض التفاصيل عن حياته– حياته العملية– التي كانت أخاذة، لكنها كانت ناجحة نسبيًّا، وعن أوقات فراغه وكيف يقضيها. وموضحا أقواله قال:

– واضح أني لا أعرف شيئًا في الأمر، لكنني كنت أشعر بأن في إمكاني وضع الفكرة الإجمالية: القيام بالرسم التحضيري. لكن ما كنت أتطلع إليه هو رسم لوحة كاملة ذات يوم، وعندما سألت أحد الخبراء في هذا المجال أخبرني بأن خطتي ليست سيئة. وإذ أبدت اهتمامها بما يخبرها به دفعته إلى الإفصاح بما هو أكثر، قالت:

– أنا واثقة بأنك تجيد الرسم أي التخطيط. هز رأسه:

– لا، لقد بدأت مؤخراً عدة أشياء، ثم تخليت عن إحساسي باليأس؛ إذ كان في اعتقادي أن الوقت كفيل بتحقيق كل ما أتطلع إليه. لقد تبنيت هذه الفكرة منذ سنوات، لكن ما أخشاه هو أن ذلك قد يأتي بعد فوات الأوان. قالت الآنسة الصغيرة بحمية الشباب:

– لا، أبداً، إن الفرص تتقدم في كل وقت. ثم أطال النظر إليها وأردف:

– أتعتقدين ذلك يا عزيزتي الصغيرة؟ لكن بالنسبة إليَّ لقد فات الأوان لأمور كثيرة. سخرت الآنسة الصغيرة منه ولقبته بـ"**ماتوساليم**". من الغريب أنهما بدآ يشعران بأنهما في منزلهما داخل هذا المتحف البريطاني، وإذ لاحظ الشرطي المسؤول عن تفقد أقسام المتحف وجود الثنائي رأى من واجبه التواجد في القاعة الأشورية المجاورة. بعد ذلك حدث أنه ذات يوم وجد الشجاعة الكافية للتقرب منها ودعاها لتناول الشاي. فكان أنها قدمت اعتذارات:

– أنا لست حرة. وقد لا أجد وقتاً لذلك. وإذا كنت أحضر إلى هنا من حين إلى آخر في الصباح فهذا لأن الأولاد يأخذون دروساً في اللغة الفرنسية. قال لها:

– لا، بل في إمكانك الحصول على يوم. انتحلي أيّ عذر وتعالي نذهب معاً إلى صالون الشاي الموجود على بعد خطوات من هنا، وسوف نتناول الفطائر الصغيرة بالحليب (اللبن) مع الشاي. إني أعلم أنه لابد من أنك تحبين هذه الفطائر.

– نعم، الصغيرة جداً والتي بالعنب.

– نعم، المثلجة وعلى وجهها سكر...

– كم أنها لطيفة هذه الفطائر الصغيرة.

– فعلاً، إنها أيضاً مشبعة. هكذا أعلن "**فرانك أوليفيه**"، وإذ تم الاتفاق، وفعلاً حضرت الآنسة الصغيرة وقد وضعت وردة على فستانها الأسود لهذه المناسبة.

كان قد لاحظ أنها كانت منذ فترة من الوقت تبدو مشدودة ومهمومة، وكان ذلك واضحاً أكثر عندما كانت في فترة ما بعد الظهر تصب الشاي، واستفسر بعد لحظة:

– هل الأولاد يسببون لك متاعب؟ هزت رأسها بالنفي، وكانت دائماً تبدي نفوراً عند سماع تعليق عن الأولاد. قالت:

– إنهم لا يسببون لي أية مشاكل، وإن كنت أشعر بضيق فإنه ليس بسببهم.

– ليست حقيقة.

كان ما يبدو في صوت رفيقها هذا من تعاطف كان يزيد من إحساسها بالأسى.

– لا.. لم يحدث لي ذلك قط، إن ما يسبب لي ذلك هو إحساسي بأني وحيدة،

أعيش دائمًا في وحدة. آه لو علمت...

– نعم، نعم يا عزيزتي الصغيرة أعلم... أعلم... هكذا أبدى تأثره. وبعد قليل قال لها:

– أتعلمين أنك حتى الآن لم تسأليني عن اسمي؟

– أرجوك أنا لا أريد أن أعرفه. ولا تسألني عن اسمي. ولنكتفِ بأننا مخلوقان منفردان، تقابلا وربطتهما صلة صداقة... لأن ذلك يجعل الأمر أكثر بهجة و... بعيدًا... عن المألوف. وإذ بدا ساهمًا أبدى موافقته:

– حسنًا جدًّا. هذا كما أننا بالتالي ونحن يعاني كل منا الوحدة سنظل باقين الواحد للآخر.

إن ما تكلم به يبدو مختلفًا عما تقصد، وبالتالي وجدت صعوبة في مواصلة الحديث، واكتفت بالنظر إلى طبقها، وأصبح لا يظهر سوى إطار قبعتها. قال محاولاً طمأنتها:

– إنها قبعة جميلة تلك التي تضعينها على رأسك. قالت باعتزاز:

– إنها من إعدادي.

– هكذا كان اعتقادي منذ أن رأيتها. هكذا أجاب بما كان لا ينبغي أن يُقال وقد بدا مبتهجًا.

– أخشى الا تكون بالأناقة التي كنت أرجوها. أردف مؤكدًا:

– أنا أجدها قبعة رائعة.

من جديد ساد بينهما الحرج. وكان "**فرانك أوليفيه**" هو الذي قطع هذا الصمت قائلاً بشجاعة:

– يا آنستي الصغيرة، لم تكن لي نية لأن أقول لك ذلك، لكن كان ذلك أقوى مني، إني أحبك وأريد أن تكوني لي. لقد أحببتك منذ اللحظة التي رأيتك فيها وأنت في معطفك الأسود، ماذا يا عزيزتي لو أن اثنين فرادى يتحدان... وهكذا سوف تزول الوحدة. وسأعمل في هذه الحالة. وكيف أعمل! سوف أعد ألف صورة لك وسأكون كفيلاً بذلك. آه يا عزيزتي الصغيرة، أنا لا أستطيع أن أحيا دونك. أقسم لك بأني لا أستطيع...

وكانت آنسته الصغيرة متأملة بأقصى حدود الاهتمام. وما قالته له كان آخر شيء يفكر فيه أو يتوقعه. لقد قالت له بكل هدوء وبوضوح:

– هذا المنديل، إنك اشتريته!

وكم أعجب بما أبدته من عمق تفكير وحذق، وما أدهشه بالأكثر هو أنها واجهته به الآن. اعترف بكل وضوح:

– نعم، بالضبط. كان لابد لي من أيّ ادعاء لكي أكلمك. هل غضبت للغاية؟

وانتظر في خضوع حتى تنطق بالحكم. قالت بحمية:

– أرى في ذلك البساطة كلها..

وكان صوتها يرتجف وهي تنطق بهذه الكلمات. واصل "**فرانك أوليفيه**" حديثه:

– أخبريني يا عزيزتي الصغيرة، أحقًّا هذا مستحيل؟ أنا أعلم أني فعلاً بسيط جدًّا، إنسان غير مهذب... قاطعته الآنسة المنفردة:

– لا، إنها ليست حقيقة. لا، قد أحبك بخلاف ذلك ولا أتمنى أن تتغير، إني أحبك على وضعك هذا، ليتك تدرك ذلك. ليس إشفاقًا عليك وليس لأني وحيدة في الدنيا وأحتاج إلى شخص يحبني ويهتم بي... لكن لأنك ببساطة؛ لأنك "أنت" هل فهمت الآن؟ سألها:

– أحقًّا ذلك؟

– إنها حقيقة. وهكذا غمرتهما البهجة. تمتم كما لو كان في حلم:

– بذلك نكون قد وصلنا إلى الفردوس يا حبي. قالت مبدية ابتسامة ممزوجة بالدموع:

– وفي صالون الشاي (ABC) لكن حياة الجنات الأرضية قصيرة. وفجأة صاحت الآنسة الصغيرة:

– لم ألتفت إلى أن الوقت تأخر بي ولابد من أن أعود فوراً.

– سأرافقك إلى منزلك.

– لا، لا، لا. لكنه أصر على اصطحابها إلى المترو.

– الوداع يا عزيزي.

وكانت وهي تصافحه قد ضغطت بشدة على يده بطريقة ظلت عالقة بذاكرته.
قال لها مصححًا:

– ليس وداعًا إنما إلى اللقاء، إلى أن نلتقي صباح غد في العاشرة صباحًا كالمعتاد وسيخبر كل منا الآخر باسمه، وسوف يسرد كل منا أحداث حياته. كررت بإصرار:

– في الفردوس...

– وحيث سنكون معًا دائمًا يا عزيزتي.

بادلته الابتسامة ولكن كان في ابتسامتها لمحة توسل حزينة كانت تزعجه وكان يعجز عن الدخول إلى عمق ما تخفيه، لكنه قاوم تأثره بعد سماع كلماتها الأخيرة؛ لكي يستعيد عبارات الأمل السابقة بالنسبة إلى الغد.

في تمام الساعة العاشرة صباحًا تواجد في المكان المعتاد نفسه. ولأول مرة لاحظ أن الآلهة الأخرى تتطلع إليه بسخرية. وكأنها تعرف سرًّا خاصًّا به. ثم ما لبث – وإن كان بصعوبة – أن أدرك ما تبديه نحوه من تحول.

لقد تأخرت الآنسة الصغيرة. لماذا لم تصل؟ وكان جو هذا المكان يزعجه. لماذا صديقه الصغير (إله كليهما) لم يبد له قبل الآن عاجزًا كما هو الحال اليوم؟ كان أن قطع عليه حبل أفكاره صبي وقف أمامه وتفرس فيه من الرأس حتى القدمين ومد له خطابًا:

– هذا الخطاب لي؟

تناوله وانصرف الصبي. قرأ "**فرانك أوليفيه**" الخطاب ببطء وهو يكاد ألا يصدق عينيه. كان الخطاب قصيرًا جدًّا:

"محبوبي،

لن أتمكن من الزواج بك. ليتك تنسى ما تسببت لك فيه من توتر وحاول أن تغفر لي لو كنت قد جرحت أحاسيسك. لا تحاول القيام بالبحث عني؛ لأنك لن تصل إلى حل، هذا وداع حقًّا".

الآنسة المنفردة

وكانت هناك جملة على ما يبدو أنها أضيفت إلى الورقة في اللحظة الأخيرة:

"أحبك، نعم إني أحبك" .

كانت هذه الكلمات الملحقة تعزية له خلال الأسابيع التالية. وخالف وصيتها بألا يبحث عنها، لكن جهوده باءت بالفشل. لقد رحلت محبوبته لكيلا تعود أبداً بعد ذلك. وكان هذا بلا شك الدافع لكي يرسم. لقد نجحت خطته، ومنذ تلك اللحظة نَعِم بالإلهام ومرونة الأداء.

كانت اللوحة التي منحته الشهرة قد عرضتها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة، ولقد اعتبرت لوحة العام نسبة إلى موضوعها وحسن أدائها. كان الإلهام بفكرتها قد أتاه بمحض المصادفة، مجرد إحدى قصص الساحرات، وكان قد قرأها في إحدى المجلات، وهي التي حركت خياله.

كانت قصة أميرة محظوظة، تحصل دائماً على كل ما تتمنى. أي رغبة أو أمنية كانت يستجاب لها. كان والدها ووالدتها يحبانها، كانا يحضران لها أفخر الملابس وأثمن المجوهرات، ويضعان خدماً للسهر على راحتها وتلبية كل رغباتها، وجوقة من العذارى المرحات لمرافقتها في كل مكان. باختصار كانا يحيطانها بكل ما قد تحلم به أميرة. وكان أكثر الأمراء ثراءً وجمالاً يسعون إلى التقرب إليها، ويعمل كل منهم ما لا يخطر على البال لكي يثبت لها مدى حبه واستعداده للتضحية من أجلها. ومع كل ذلك كانت وحدتها وقناعتها يفوقان ما هو لمتسول بائس في المملكة.

كان لم يقرأ أكثر من ذلك؛ إذ كان مصير هذه الأميرة وقدرها لا يمنحانه أية مسرة؛ إذ قد رُسمت أمامه صورة أميرة ذات قلب كسير، مخنوقة بالترف داخل قصر الرفاهية. وفي الحال شرع بتصوير ما قرأ.

كان قد رسم الأميرة مستلقية إلى النصف على أريكة ومحاطة ببلاطها.. وكان قد حرص على إلباسها فستاناً رائعاً. ولم تغفل عن تصوير ما كانت تتزين به من مجوهرات ثمينة لا حصر لها. وكذلك شعرها الذهبي المسترسل حتى خصرها، وجوقة العذارى المحيطات بها، والأمراء الأثرياء يخرون تحت قدميها مقدمين هداياهم الفاخرة. بالإجماع كانت اللوحة تظهر كل الترف والثراء.

كانت هذه الأميرة أيضاً تحول نظرها عن كل هذه المظاهر، وتنظر إلى مكان مظلم

فيه تمثال من الحجر الرمادي، يخفي رأسه بين يديه، معبرا عن اليأس الكامل.

هكذا كانت خلاصة فكرة اللوحة؛ أميرة منفردة تتأمل إلهًا صغيراً فريداً. كانت "**لندن**" كلها تتحدث عن هذه اللوحة وأرسلت "**جريتا**" له من "**يوركشاير**" بعض عبارات التقدير والتهنئة. وكانت زوجة "**توم هارلي**" تستحلفه أن يأتي ويقضي إجازة عطلة نهاية الأسبوع ولقاء فتاة معجبة بإنتاجه. ابتسم "**فرانك أوليفيه**" وألقى الخطاب في النار. لقد أتاه النجاح. لكن بم يفيد؟ كان لا يشعر إلا برغبة واحدة : العثور على الآنسة الصغيرة الوحيدة التي خرجت من حياته إلى الأبد.

كان يوم "**لي جران بري دو أسكوت**" ووقف الشرطي القائم بالعمل في جناح معين في المتحف البريطاني يفرك عينيه متسائلاً عما إذا كان لا يحلم؛ لأنه من كان يتوقع مشاهدة – في هذا المكان – أميرة "**أسكوت**" الأنيقة في فستان من الدانتيل وعلى رأسها قبعة نادرة الأناقة، كل ما هو نادر، ما لا يخطر على بال، هذا الذي ظهر في خيال نابغة باريسي. وقف الشرطي مبهوراً أمام هذه اللوحة.

أما عن الإله الصغير، فلا شك في أنه لم يدهش. من يدري إن لم يكن هو ذاته إلهًا صغيراً قادراً، على طريقته! رفعت الآنسة المنفردة عينيها نحوه وهي تتمتم لا إراديًّا:

– أعني أيها الإله الصغير. آه أتوسل إليك أن تعينني.

ربما كان للإله الصغير فيما مضى تلك الألوهية القادرة التي كان "**فرانك أوليفيه**" قد تصورها وأن سنوات المظهر وتقدم الحضارة كانا قد عملا على تلطيف برودة قلبه الحجري. ومن يدري ربما كانت الآنسة الصغيرة على حق، وكان حقًّا إلهًا صغيراً لطيفًا. وربما كانت مجرد مصادفة. باختصار إنه في هذه اللحظة بالتحديد كان "**فرانك أوليفيه**" – الغارق في يأسه واكتئابه – عبر عتبة الآثار الأشورية.

ثم رافعًا رأسه رأى الحورية الباريسية. وفي الدقيقة التالية، كان يحوطها بذراعيه بينما كانت تتمتم بهذه الكلمات المفككة:

– كنت وحيدة... أحيا في وحدة كاملة... وأنت تعلم معنى ذلك ولا شك في أنك قرأت القصة التي كتبتها؛ ولولا قراءتك هذه القصة وفهمك معناها ما كنت

قد أعددت هذه اللوحة. الأميرة، كنت أنا. كنت أمتلك كل شيء ومع ذلك كنت وحيدة. وكان أني توجهت إلى إحدى قارئات الطالع، وفي ذلك اليوم كنت قد استعرت ملابس خادمتي. ودخلت إلى هنا، وفي أثناء مروري لاحظت أنك تتأمل الإله الصغير؛ هكذا كانت البداية. لقد عملت على الظهور على غير حقيقتي. وفعلاً كان تصرفًا جريئًا مني، لكني واصلت وفيما بعد لم أجد الشجاعة اللازمة لكي أعترف لك بأني كنت أقدم أكاذيب خشية أن أجعلك تتألم لأني خدعتك. كنت لا أحتمل فكرة أنك سوف تكتشف حقيقتي، فانصرفت. ثم كتبت هذه القصة وبالأمس شاهدت لوحتك. إنها فعلاً من إعدادك، أليس كذلك؟

إن الآلهة وحدها هي التي تعرف معنى عبارة نكران الجميل. من ذلك نقول إذن إن الإله الصغير المنفرد كان يعرف نكران جميل الآدميين وقساوتهم. من جهة الألوهية، لم يفتقر إلى فرص ملاحظتها ومع ذلك عندما حانت ساعة الاختبار – هو من قدمت له تقدمات عديدة – وافق على تقديم واحدة. لقد ضحى بالاثنين اللذين كانا يعبدانه في هذه المنطقة النائية وقد وجد في ذلك إثباتًا بأنه كان في قومه إلهًا صغيرًا شريفًا نبيلاً؛ لأنه ضحى بكل ما يمتلك هنا.

ولقد رآهما يهربان معًا من بين فرجة أصابعه الحجرية دون أن يلتفتا إلى الوراء لإلقاء ولو نظرة إليه. لقد هرب هذان المغبوطان اللذان وجدا الفردوس وبالتالي لم يعودا في حاجة إليه، وهو ما الذي اكتسبه، إن لم يكن إلهًا مسكينًا صغيرًا منفردًا نقيًا في أرض غريبة؟

*****

ذهب جزيرة "مان"

شخصيات الرواية:

– "**ميلز ميليشاران**" : رجل مُسن كان يعيش في جزيرة "**مان**" يُعرف بالعم "**ميل**".

– "**فينيلا ميليشاران**" : ابنة أخي العم "**ميلز**".

– "**جوان فاراكير**" : ابن أخي العم "**ميلز**".

– "**إيوان كورجيج**" : ابن أخي العم "**ميلز**".

– "**ريتشارد فايل**" : ابن عم العم "**ميلز**".

– السيدة "**سكيليكورن**" : مدبرة منزل العم "**ميلز**".

"كان "**ميليشاران**" العجوز يعيش هناك أعلى الهضبة
التي تنحدر منها "**جيربي**" نحو السهل المتموج.
كان بستانه المسوَّر يبدو ذهبيًا، وذلك كان من الرتم (نبات شائك) والزال (نبات ذو زهور صفراء).
كانت ابنته شقراء مثل الحنطة (القمح)
– يقولون يا أبي إنك صاحب ثروات عظيمة،
لكنك تخفيها من المكان بسرعة،
والذهب لا أرى أي أثر له،
هذا إن لم يكن ما أراه انعكاس لون الرتم؛
لذلك أتوسل إليك أخبرني ماذا فعلت بها؟
– لقد وضعت الذهب في خزانة من خشب البلوط،
وألقيت بها في البحر وتركتها تسبح.
وهناك يستقر الذهب مثل مرساة الأمل،
لامعًا، تشع منه أضواؤه وأكثر أمانًا من المصرف (البنك)" . قلت بعد أن أنهت "**فينيلا**" أغنيتها:

– إني أعشق هذه الأغنية. وأردفت "**فينيلا**" :

– إنه أقل تعبيراً. هذه الأغنية تتكلم عن سلفنا، سلفك وسلفي. لقد أثرى جد العم "**ميلز**" من قيامه بتهريب البضائع، وأخفى ثروته في مكان لم يعرفه أحد.

كانت "**فينيلا**" تهتم كثيراً بسلسلة النسب؛ لأنها تذكر كل أسلافها. أما أنا فلي طبيعة تهتم بكل ما هو حديث وعصري، أعيش زماني، أبذل كل طاقاتي في حاضري بكل ما له من متاعب وصعوبات وكذلك كل ما للمستقبل من أمور خفية. أميل إلى سماع "**فينيلا**" وهي تغني تواشيح قديمة.

"**فينيلا**" تفيض سحراً وهي ابنة عمي الألمانية كما كانت خطيبتي لفترة ما. كنا نكثر من الوعود في فترات انتعاشنا المالي وكنا إذا ما أساءت إلينا فترات التشاؤم نتخلى عن وعودنا؛ لأننا كنا في هذه الحالة لا نستطيع الإقدام على الزواج قبل عشر سنوات. سألت مستفسراً:

– وبالنسبة إلى هذه الثروة، ألم يفكر أحد في البحث عنها والعثور عليها؟

– بالتأكيد بلى، لكنهم جميعاً فشلوا.

– ربما كان هذا راجعاً إلى أن البحث لم يتم بطريقة علمية. قالت "**فينيلا**" :

– لقد اهتم العم "**ميل**" بكل ترحاب، مدعياً دائماً أن أي فرد يتمتع بأقل قدر من الذكاء لابد أن يكون كفيلاً بحل مشكلة غامضة كهذه وكانت فكرة أو زعم العم "**ميل**" – وهو رجل مسن غريب الأطوار الذي يعيش في جزيرة "**مان**" – يبدو لي نموذجياً. وكانت الرسائل قد وصلت ومعها الخطاب. حينئذ صاحت "**فينيلا**" :

– الرحمة يا رب... عندما أتذكر الشيطان... أقصد الملائكة... لقد مات العم "**ميل**".

لم تُتَح لنا – هي وأنا – فرصة لقاء عمنا هذا إلاَّ في مناسبتين، وكان هذا هو الدافع إلى أننا – هي وأنا – لم نشعر بحزن عميق لرحيله، كان الخطاب صادراً من مكتب رجل قانون في "**دوجلاس**" وكان يفيدنا فيه بأننا – وفقاً لطلب الفقيد وإرادته وهو في كامل وعيه: السيد "**ميل ميلشاران**" – لنا – أنا وهي – حق الإرث في أملاكه، وهي عبارة عن منزل في "**دوجلاس**" وكذلك دخل ضئيل جداً. مرفق مع الخطاب ظرف مختوم كُتب عليه يسلم إلى "**فينيلا**" عند وفاته، فتحنا الظرف للإلمام بما في داخله. وهأنذا أكتبه بالنص:

أحبابي " **فينيلا** " و " **جوان** " (لأني أرجو أن تكونا متقاربين) ربما تتذكران أنكما سمعتماني وأنا أردد أن قليلا من الذكاء يسمح لأي شخص باكتشاف الكنز الذي أخفاه الجد . ولقد استخدمت هذا القليل وتمكنت من اكتشاف أربع خزائن من الذهب . وكأنها قصة خيالية . أليس كذلك؟

وها هي أُسرتي قد تضاءلت ووصل عدد أفرادها إلى أربعة أشخاص : أنتما وابن أخي . "**إيوان كورجيج**" وابن عم لي الدكتور " **فايل** " لم أسمع عنه إلا قليلا . إني أترك أملاكا لكما ، لكنني أشعر بأن عليَّ بعض الالتزامات بما يختص بهذا الكنز الذي لم أحصل عليه إلا بالقدر الضئيل من الذكاء ، لقد تراءى لي أن جدي قد لا يرحب بأن يراني وأنا أمنحه بطريق الإرث ؛ لذلك تخيلت عملاً صغيراً . ها هنا توجد أربع خزائن أكثر حداثة فيها سبائك ذهب ، ومشغولات ذهبية . وبالتالي سيكون هناك أربعة متنافسين : أقاربي الأربعة الذين مازالوا على قيد الحياة . والعدل يقتضي منح صندوق لكل واحد ، إلا أن الناس – يا أولادي – يجهلون العدالة ؛ إذ إن الأسرع هو الذي يفوز وأحيانا من هو أقل .

مَنْ أكون أنا حتى أعترض "الطبيعة" ؟ حينئذ وبعد الوضع في الاعتبار الاثنين الآخرين ، ولما كان من النادر أن تُكافأ الشخصيات صاحبة الروح العالية أو النفس البسيطة أو السذج في هذا العالم ، أعتقد – وهو ما أخشاه – أن نصيبكما سيكون ضئيلاً في هذه الثروة ، فاقتنعت تمامًا بذلك ، إني قمت باستخدام الغش لكسر الظلم (كما قد يمكنكما ملاحظة ذلك) هذا الخطاب سيصلكما قبل الاثنين الآخرين بـ 24 ساعة . هكذا يمكنكما الحصول على الكنز الأول : مدى 24 ساعة هذا إذا كان عندكما قدر من المخ بمليمين فقط . ينبغي أن تكفيكما الـ24 ساعة ، أما المؤشرات التي تسمح بتحديد هذا الكنز فسوف تكتشفانها في منزلي في " **دوجلاس** " . ولن تعلن أدلة على الكنز الثاني قبل اكتشاف الأول . وبالنسبة إلى الثاني وما بعده ستكون متساوية ، تمنياتي الصادقة لكما بالنجاح وأن تكون من نصيبكما . ولن يُسعدني شيء بقدر أن أراكما وقد حصلتما على الصناديق الأربعة ، لكن للأسباب السابق ذكرها ، هذا يبدو لي غير متوقع . تذكرا أنه لن يعمل أي شك في جعل العزيز "**إيفان**" يتوقف في الطريق . ولا ترتكبا حماقة بوضع

ثقتكما به في كل شيء. أما بالنسبة إلى الدكتور "**ريتشارد فايل**" فأعتقد أنه شخص فاسد، بالإجماع لا يصلح، ليكن الحظ حليفكما، لكن دون أية تكهنات بالنسبة إلى نجاحكما.

عمكما المخلص

"**ميلز ميليشاران**"

وفي اللحظة التي وصلنا فيها إلى التوقيع وكانت "**فينيلا**" جالسة بجواري؛ إذ بها تنهض دفعة واحدة، صحت:

– ماذا في الأمر؟

في هذه الأثناء كانت "**فينيلا**" تقلب صفحات دليل السكك الحديدية ودليل النقل البحري. وبدورها صاحت:

– لابد أن نكون في جزيرة "**مان**" بأسرع ما يمكن. كيف يجرؤ على أن يدَّعي أننا سُذَّج وأغبياء؟ سوف أُريه أنا. هيا يا "**جوان**" سنفتح هذه الصناديق الأربعة ونتزوج ونحيا سعداء حتى نهاية أيامنا، مع "**رولز رويس**" والخدم والحمَّام الرخامي؛ لذلك يجب أن نتوجه فوراً إلى جزيرة "**مان**".

بعد أربع وعشرين ساعة، كنا قد وصلنا إلى "**دوجلاس**" واستجوبنا رجال القانون وها نحن الآن في "**موجولد هاوس**" أمام السيدة "**سكيليكورن**" مدبرة منزل المرحوم عمنا قد تكون سيدة مهيبة متشددة إلى حد كبير لكن على ما يبدو أن "**فينيلا**" تمكنت من تخفيف حدة طبعها.

– لا شك في أنه كان شاذًّا. وكل ما كان يحبه هو إلزام كل فرد بحصر مخه في حل ألغاز وأسرار خفيَّة. هنا صاحت "**فينيلا**":

– والمؤشرات أو الأدلة؟

كعادتها غادرت السيدة الحجرة ببطء وثبات، وبعد بضع دقائق عادت ومعها ورقة مطوية إلى أربعة وسلمتها لنا. أسرعنا في فردها. وجدنا بخط عمي الأقرب ما يكون إلى النبش، كانت الورقة مسطرة بهذه العديَّة (التعيين من يقع عليه الدور في اللعب) من الشعر الرديء:

ستجد في ذهنك أربعة أنواع من الرياح

جنوبية وغربية وشمالية وشرقية
والضار منها للدواب والناس هو الشرق
اتجه إلى الجنوب ثم إلى الغرب
وإلى الشمال وليس إلى الشرق

– آه! هكذا صاحت "**فينيلا**"؛ إذ اضطربت.

– آه! هكذا صحت أنا أيضاً وكأنه صدى لصوتها، وإذا بالسيدة "**سكيليكورن**" تبتسم لنا... ثم تعلن:

– كل هذا لا يفيد بشيء كافٍ. أردفت "**فينيلا**":

– إنه... أريد أن أقول إني لا أعرف من أين أبدأ. وإذا بي أعلّق مسروراً – وقد كنت بعيداً عن الإحساس بالسرور:

– إن البداية تشكل دائماً الصعوبة. لكن ما نجدها... وإذا بالسيدة "**سكيليكورن**" تبتسم وقد عبس وجهها أكثر. إنها فتاة محطمة.

– أنا لا أعرف شيئاً عن هذه القصة الغبية. إن عمكما كان لا يصارحني بشيء.. لقد نصحته مراراً بأن يضع ثروته في أحد المصارف (البنوك) وألاً يذكر ذلك لأحد بعد ذلك. والآن سترون ما تم وما كان يفكر فيه.

– ألم يخرج هذا الذهب من الصناديق قط...؟

– على أية حال كان.

– ألا تعلمين متى أخفي الكنز، هل من فترة قريبة الزمن أو منذ زمن بعيد؟

هزت السيدة "**سكيليكورن**" رأسها علامة للنفي. قلت محاولاً أن أتمالك نفسي:

– حسناً، هناك احتمالان. سواء أكان الكنز مخفيًّا هنا على هذا الموقع بالتحديد أو في أي مكان آخر بالجزيرة. وهل أجد ما يفيدني بين أوراق وحاجات عمي؟

– إن سؤالك يثير دهشتي. كانت توجد أربعة منافض للسجائر ولا أجد الآن واحدة منها. حينئذ صاحت "**فينيلا**":

– أربعة! إذاً نحن في بداية الطريق. هيا بنا نخرج إلى الحديقة ولننقِّب فيها. قالت السيدة "**سكيليكورن**":

– لا يوجد شيء في الحديقة. مستحيل أن يكون عمكما قد طمر شيئًا ما دون أن يصارحني بذلك أو دون أن أشعر. قلت:

– إذًا طالما تكلم عن الجهات الأصلية والرياح حينئذ تلزمنا بالضرورة خريطة للجزيرة. قالت السيدة "**سكيليكورن**":

– توجد خريطة على هذا المكتب. أسرعت "**فينيلا**" بفردها في الحال. وإذ تمزق جزء منها، وسقط التقطه في الحال. وصاحت:

– وكأنه مؤشر آخر. فحصناه بدقة.

كان ذلك أقرب ما يكون إلى خريطة معدة بطريقة بدائية. كان عليها صليب ودائرة وسهم وكلها مصوبة في اتجاه واحد إلا أن التوجيه كان غير واضح.. فعملنا معًا على دراسته في صمت. قالت "**فينيلا**":

– هذا لا يوضح شيئًا، أليس كذلك؟

– بداهة إنه هكذا. إن هذا معد لكي نتعب في التفكير وعصر أذهاننا. ثم جاء طلب "**فينيلا**":

– أنستطيع الحصول على قهوة؟ قهوة بكمية كبيرة... قهوة سادة؟ أسرعت السيدة "**سكيليكورن**" بتقديم وجبة ممتازة، وفي نهايتها قدمت إلينا قهوة بكمية وفيرة. قالت "**فينيلا**":

– الآن لابد لنا من العمل الجاد. قلت:

– الخطوة الأولى هي التوجيه. إن هذه الورقة تشير بوضوح إلى شمال شرق الجزيرة.

– على ما يبدو. لننظر في الخريطة. بعد أن درسنا الخريطة باهتمام قالت "**فينيلا**":

– هذا يتوقف على مدى ربط الموضوع بالخريطة. هل الصليب يمثل الثروة؟ أم أنه شيء يشبه أو يقصد به الكنيسة؟ حقًّا لابد من وجود قواعد لذلك.

– في هذه الحالة ستصبح الدراسة سهلة.

– قد لا تخطئين في ذلك. لكن لماذا توجد خطوط صغيرة على مكان معيَّن على الخريطة وليس على سواه؟

– لا أعلم شيئًا عن ذلك.

– هل هناك خرائط أخرى؟

كنا جالسين وقتئذ في المكتبة، وكانت هناك خرائط عديدة ممتازة، والكثير من الدلائل تصف الجزيرة. ولقد اطَّلعنا عليها كلها. وفي النهاية خرجنا بنظرية معقولة.

– هذا على ما يبدو "عقد" – هكذا تراءى لـ"**فينيلا**" – أقصد بذلك أن اتحاد اثنين ما هو إلا مزيج محتمل، ويبدو لي أنه يتم في أي مكان آخر. مؤيداً قولها قلت:

– على أية حال، هذا يتطلب المحاولة. وأعتقد أننا لا نستطيع عمل شيء آخر هذه الليلة. بمشيئة الله سنعمل غداً في الصباح الباكر على استئجار سيارة ونرحل في محاولة لتجربة حظنا. فأعلنت "**فينيلا**" :

– ها نحن في صباح غد، والساعة الآن الثانية والنصف. أجدك ربما لا تشعر بذلك. وفي الصباح الباكر، في اليوم التالي بدأنا طريقنا. كنا قد استأجرنا سيارة لمدة أسبوع على أن نقوم بقيادتها نحن بأنفسنا.. وكان التفاؤل باديا على "**فينيلا**" كلما قطعنا الكيلومترات، قالت:

– فقط لولا وجود الاثنين الآخرين لكان الوضع ممتعًا أكثر. على ما أعتقد أن الـ"**دربي**" هو الذي كان هنا في بدء الأمر. قبل أن يحول إلى "**إيبسوم**". إن مجرد التفكير في الأمر له أهميته .حينئذ عملت على لفت نظرها إلى مزرعة توجد عن بعد.

– قد يكون هذا هو المكان الذي يُقال إن به ممرًّا سريًّا تحت البحر يساعد على الوصول إلى هذه الجزيرة القريبة.

– شيء رائع، مسلٍّ! إنني أعشق الممرات السرية، وأنت؟ آه! انظر يا "**جوان**"، لقد وصلنا أو على الأقل كدنا نصل الآن.. كم أنا متحمسة... ليتنا نكون على حق في تصرفنا هذا! وما هي إلا خمس دقائق بعد ذلك، حتى كنا قد تركنا السيارة. قالت "**فينيلا**" وهي ترتجف من التأثر:

– كل شيء في المكان المناسب، المحدَّد. وواصلنا مسيرتنا.

– ها هنا ست منها... تمام. والآن بين هذين الاثنين. هل معك البوصلة؟

بعد قليل وقفنا كل منا في مواجهة الآخر والوجه مشرق بمسرة غير متوقعة، غير أنه كان على كفي المبسوطة منفضة سجائر قديمة. لقد نجحنا.

عند عودتنا إلى "**موجولد هاوس**"، أعلمتنا السيدة "**سكيليكورن**" وهي تستقبلنا أن اثنين من السادة قد وصلا.. أحدهما انصرف، والآخر موجود في المكتبة. عند دخولنا إلى الحجرة، نهض رجل طويل أشقر عن مقعده مبتسماً.

– السيد "**فاراكير**" والآنسة "**ميليشاران**"؟ أتشرف بمعرفتكما، أنا ابن عمكما البعيد الدكتور "**فايل**". إنها لعبة مسلية هذه القصة، أليس كذلك؟

كان يبدو محبًّا، لكنني شعرت فجأة بتغيير رأيي فيه؛ إذ إني – دون أن أعرف السبب – شعرت بأن هذا الرجل خطير؛ لأنه كان يبالغ في الظهور بأنه محب، كما أنه يعمل دائماً على ألا ينظر إليك مواجهة. قلت:

– أخشى ألا تكون لدينا أخبار غير سارة بالنسبة إليكما. لقد اكتشفنا – الآنسة "**ميليشاران**" وأنا – الكنز الأول. قال:

– هذا مؤسف، يا خسارة. مع أننا – "**بارفورد**" وأنا – بدأنا رحلتنا إلى هنا فور تسلم الخطاب. ربما تتأخر الخطابات عندما ترسل من هنا. ولم نجرؤ على الإفصاح له عن خداع العم "**ميلز**". وأردفت "**فينيلا**":

– على أية حال سوف نرحل معاً للرحلة الثانية. نرتبط بالأدلة في الحال، ما رأيكما؟ إن السيدة الفاضلة... له... "**سكيليكورن**" تحتفظ بها، أعتقد ذلك.

استطردت "**فينيلا**" في الحال:

– قد يكون هذا التصرف غير لائق بالنسبة إلى السيد "**كورجيج**"؛ إذ يجب علينا انتظاره.

– تمام، تمام... كنت قد غفلت عن ذلك.. يجب أن نضمه إلينا فور تمكننا من ذلك – قد تكونان متعبين وتحتاجان إلى الراحة.

ثم استأذن. أما "**إيوان كورجيج**" فلم يعد مرة أخرى ولم نعرف مكانه حتى اتصل بنا الدكتور "**فايل**" قبل الساعة 23 أي الواحدة صباحاً، وكان يقترح أن "**إيوان**" وهو سوف يلتقيان بنا في "**موجولد هاوس**" في الساعة العاشرة صباح غد

وهو وقت مناسب لكي تسلمنا فيه السيدة "**سكيليكورن**" العلامات. أجابت "**فينيلا**":

– هذا رأي سليم. إلى العاشرة صباحا. إثر ذلك دخلنا لكي نستريح؛ لأننا كنا متعبين جداً، لكن سعداء. وفي صباح اليوم التالي، أيقظتنا السيدة "**سكيليكورن**" التي كانت تبدو متأثرة. قالت:

– ما رأيكما في ذلك؟ لقد دخل شخص ما مستخدمًا الكسر. فما كان مني إلا أن صحت في الحال:

– لصوص؟ هل سرقوا شيئًا؟

– لا، لم يسرقوا شيئا بالمرة... وما هو أغرب من هذا. يبدو أنهم كانوا يقصدون الفضية... لكن لأن الباب كان مغلقًا بالمفتاح لم يتمكنوا من التعمق في الداخل.

رافقناها "**فينيلا**" وأنا إلى صالونها الخاص. وكانت نافذة الغرفة مفتوحة بطريقة عنيفة.. غير أن شيئًا لم يُفْقَد، لم يسلبوا شيئًا، كل هذا يدعو إلى الدهشة والبحث عن الغرض من دخوله. أردفت "**فينيلا**":

– أنا لا أدري عما كانوا يبحثون أو ماذا كانوا يريدون . وجاء تعليقي:

– وكأن خزانة كنز تخفى في المنزل. وفجأة ساورتني فكرة، فالتفت نحو السيدة "**سكيليكورن**":

– الأدلة... الأدلة التي كنت مُزمعة أن تعطيها لنا صباح اليوم؟

– إنها في هذا الدرج الأعلى. ذهبت لكي تفتحه، وإذا بها تعلن أنها اختفت تمامًا. قلت:

– إذًا لم يكونوا لصوصًا، إنهم أقاربنا.

ثم تذكرت إنذار العم "**ميلز**" بشأن عدم وجود شكوك سوف تتعرض لها.. بلا شك كان يعرف جيدًا عما يتكلم. فجأة رفعت "**فينيلا**" إصبعها وهي تقول:

– هس! ماذا حدث؟

إن الصوت الذي شعرت به وصل بوضوح إلى مسامعنا... كان هناك أنين يصدر من الخارج.. كانت كتلة شجيرات في هذا المكان، ولم نتمكن من تمييز أي شيء. ولما تكرر الأنين ووضح لنا أن هناك أغصان شجرة مكسورة نزلنا على عجل وطفنا

حول المنزل. أول ما اكتشفناه كان سلمًا ملقى على الأرض. وأبعد من ذلك بخطوات وجدنا رجلاً ممدداً على الأرض كان شابًّا أسمر فارع الطول كان يرقد وسط بركة من الدم ينزف من رأسه المحطم. ركعت بجواره.

– لابد من استدعاء الطبيب فوراً، أخشى أن يكون ميتًا. فأسرع البستاني للتنفيذ. وضعت يدي في الجيب الأعلى من سترته وأخرجت محفظة. كانت تحمل الحروف E.C ، قالت "**فينيلا**":

– "**إيوان كورجيج**". فتح الرجل عينيه وقال بصوت خافت:

– سقطت من على السلم. ثم فقد وعيه أي غاب عن صوابه مرة أخرى. وبالقرب من رأسه، كان هناك حجر ضخم غير منتظم ملطخ بالدماء. أعلنت في الحال:

– واضح جدًّا. لقد انزلق فسقط وارتطمت رأسه بهذا الحجر. أخشى ألا يعود إلى الحياة. استفسرت "**فينيلا**":

– أتعتقد حقًّا أن الأحداث وقعت هكذا؟

في تلك اللحظة وصل الطبيب، ومنحنا بعض الأمل في شفاء الجريح. نقل "**إيوان كورجيج**" إلى المنزل وتم استدعاء ممرضة لكي تعتني به، لكن يبدو أن ذلك لن يفيد بشيء وأنه سيفارق الحياة بعد عدة ساعات، ولما تم استدعاؤنا بالقرب من سريره كانت عيناه تتحركان باضطراب.

– إننا أبناء عمك "**جوان**" و "**فينيلا**" (هكذا قلت له) هل نستطيع أن نقدم إليك أية مساعدة؟

هز رأسه علامة للنفي، وتمتم، وكنت أنحني لسماع كلامه.

– هل تريدون الدليل؟ لقد انتهى الأمر بالنسبة إليَّ. لا تدعان "**فايل**" يتغلب عليكما. قالت "**فينيلا**":

– نعم. أعطني الدليل. وبدا على وجه الرجل الذي يحتضر ظل ابتسامة. بدأ كلامه قائلا:

– أتعلمان؟ ثم مال رأسه من جديد ومات.

– هذا لا يعجبني. هكذا جاء تعليق "**فينيلا**" على كلامه.

– ما الذي لا يعجبك؟

– اسمع يا "**جوان**" . "**إيوان**" سرق هذه الأدلة... واعترف بأنه سقط من على السلم. إذن أين الأدلة؟ لقد أطلعنا على كل ما في جيوبه. ولم نجد المظاريف الثلاثة المختومة التي سبق وأخبرتنا بها السيدة "**سكيليكورن**" . وهي ليست معه.

– ما رأيك إذًا؟

– أعتقد أن شخصًا آخر كان معه وهذا الشخص هو الذي سحب السلم لكي يفقده توازنه. وهذا الحجر بالتأكيد لم يسقط هو عليه. لقد جَرَّه إلى هنا من مكان بعيد، لقد رأيت العلامة على الأرض. بالتأكيد لقد ضُرِب على رأسه.

– لكن بذلك يا "**فينيلا**" هذه تكون جريمة قتل.

– نعم (هكذا قالت "**فينيلا**") إنها جريمة قتل. تذكر أن الدكتور "**فايل**" لم يحضر في العاشرة صباح اليوم. أين كان؟

– أتتوقعين أنه هو الجاني؟

– نعم. أتعلم أن هذا الكنز عبارة عن مبلغ ضخم. قلت:

– وليست لدينا أية فكرة عن المكان الذي نجده فيه، مؤسف أن "**كورجيج**" لم يتمكن من إتمام ما كان يريد أن يخبرنا به.

– هذا ما يمكن أن يساعدنا. كان ممسكًا بهذا في يده. وناولتني خطابًا ممزقًا.

– لنفترض أن هذا دليل. لقد انتزعه منه الجاني ولم يلاحظ أن أحد أركانه غير موجود. آه لو أننا عثرنا على هذا الجزء... قلت:

– للتوصل إلى ذلك يجب علينا أن نعثر على الكنز الثاني. والآن لنفحص هذا الدليل. قلت:

– لا يوجد شيء يكفي لإرشادنا. إنه أشبه.. إنه أشبه ببرج، هنا في وسط الدائرة من الصعب الوقوف على ما يشير إليه. فجاء قول "**فينيلا**" :

– إنه الدكتور "**فايل**" الذي يحتفظ بهذا الجزء المهم.. إنه ليعلم أين يبحث . وينبغي أن نعثر على هذا الرجل يا "**جوان**" ونراقبه. مفهوم ولنعمل على ألا نُظهر له أننا نشك فيه.

– إني لأتساءل ترى أين وكيف نستطيع التوصل إليه في هذه الجزيرة حاليًّا. وإذا بذهني يتجه إلى القتيل. فانتصبت بحماس. سألتها:

– "**كورجيج**" أليس اسكتلنديًّا؟

– بلى، بالتأكيد ليس كذلك.

– حسنًا؟ ألا ترين ماذا يريد أن يقول؟

– لا. فأشرت إلى شيء في طرف الورقة. وسألتني:

– ما هذا؟

– اسم للدليل الذي يساعدنا.

– "**بيلمان**" و"**تري**". من هما؟ من هما؟ هل هما من رجال القانون؟

– لا، إنهما مخبران سريان. وبدأت أوضح لها. وقالت لنا السيدة "**سكيليكورن**":

– الدكتور "**فايل**" يطلب مقابلتكما.

تبادلنا نظرة. لم تمر بعد أربع وعشرين ساعة. وها نحن قد عدنا من جولتنا مكللين بالنجاح للمرة الثانية. كنا – حرصًا على عدم جذب النظر إلينا – قد سافرنا إلى "**سنافيل**" باستخدام سيارة سياحية. وتمتمت "**فينيلا**":

– إني لأتساءل عما إذا كان يعلم أننا لمحناه من بعيد أم لا.

– أمر غريب جدًّا.. لو لم نكن حصلنا على هذا الدليل...

– هس... التزم الحذر يا "**جوان**".. لا شك في أنه ثائر لحصولنا عليه... غير أنه لم تظهر أية علامة للثورة على ملامح الطبيب الذي دخل إلى الحجرة بأسلوب مهذب، ورائع وجذاب فأحسست بأني معترف بنظرية "**فينيلا**". قال:

– يا لها من مأساة مفزعة! مسكين يا "**كورجيج**". أتوقع أنه كان يحاول أن... لكن العقاب كان أسرع... في النهاية. إننا في الغرفة منذ قليل، ولابد أنكما تساءلتما لماذا لم أحضر في الصباح كما كنا متفقين. لقد تسلمت رسالة خاطئة... على ما أعتقد أنها ترجع إلى "**كورجيج**"... الذي أرسلني إلى الطرف الآخر من الجزيرة؛ حتى أُضيع وقتي. والآن هاأنتما قد فزتما للمرة الثانية في رحلتكما. كيف ستتصرفان؟ وكان في صوته شيء من الفُضُول لم يخفَ عليَّ. قالت "**فينيلا**":

– لحسن الحظ، لقد تمكن ابن عمنا "**إيوان**" من التحدث معنا قبل وفاته. كنت في هذه الأثناء أراقب الرجل، وأستطيع أن أقسم أنني شاهدت القلق يظهر في

عينيه إثر هذه الكلمات. سأل:

– ماذا! ماذا؟ وماذا قال؟ وضحت "**فينيلا**":

– لقد وافانا بدليل بشأن موضع الكنز.

– آه! حسنًا، بالتأكيد... كنت قد تواجدت بالمصادفة في هذا الجزء من الجزيرة. ربما رأيتماني وأنا أتجول فيه... أجابت "**فينيلا**" وكأنها تعتذر:

– كنا في غاية الانهماك...

– بالتأكيد، بالتأكيد، لابد أنكما وجدتما الشيء المطلوب بمحض المصادفة، إنكما حقًّا محظوظان، أليس كذلك؟ حسنًا والآن ماذا بقي من البرنامج؟ هل ستتكرم السيدة "**سكيليكورن**" وتعطينا الأدلة الجديدة؟

لكن هذه الأوراق كانت قد وضعت عند رجال القانون، فتوجهنا نحن الثلاثة إلى مكتبهم حيث سُلِّمت لنا الأظرف المختومة. كان ما بداخلها غاية في البساطة خريطة عليها منطقة مُظلَّلة ومرفقًا بها ورقة بيانات:

في عام 1985 دخل هذا المكان التاريخ

عشر خطوات منذ نقطة الانطلاق

نحو الشرق، ثم عشر خطوات معادلة لها

نحو الشمال، هناك التفت نحو الشرق

سترى شجرتين إحداهما مقدسة على هذه الجزيرة

ارسم دائرة على بُعْد خمس خطوات من شجرة الكستناء الإسبانية

ودُر حولها خافضًا الرأس.. انظر جيداً وستجد

– كأننا سنسير على الأقدام في هذا اليوم قليلا. هكذا جاء تعليق الدكتور. وحريصًا على ألا أتخلى عن الظهور باللطف نحوه، عرضت عليه اصطحابه في سيارتنا، ووافق وتناولنا وجبة الإفطار في "**بورت إيرين**"، ثم بدأنا بحثنا.

كنت أحاول – مع نفسي – أن أعلل السبب الذي كان قد دفع عمي إلى وضع هذه اللعبة الجديدة، لعبة المؤشرات عند رجال القانون. هل كان متوقعا حدوث سرقة، وكان قد قرر لذلك الحيلولة دون وقوع الأدلة في يدي اللص؟

كنا في أثناء مسعانا هذا في مواجهة الواحد الآخر، يراقب كل منا ما يبدو على

ملامح الآخر. حينئذ أردفت "**فينيلا**" :

– كل هذا يُعتبر جزءاً من خطة العم "**ميلز**" كان يرغب في أن يُراقب بعضنا البعض الآخر، وأن نتحمل عذاب التفكير في أن الآخر سوف يصل أولا. فجاء قولي :

– هيا، الآن علينا أن نتصرف بطريقة علمية. معنا الآن دليل واضح كقاعدة انطلاق : " في عام 1985 دخل هذا المكان التاريخ". استرشدي بالأوراق التي معنا، لعلنا نصل إلى ما يُقصد به... فقاطعته "**فينيلا**" :

– إنه يبحث في هذا... آه، لقد ضللت. أخشى من أنه وضع يده عليه... قلت :

– اسمعيني قليلاً. لا يوجد حقًّا وسيلة للوصول إلى المكان الجيد. أردفت "**فينيلا**" :

– إن عدد الأشجار الموجود في الجزيرة قليل، مما يُسهِّل التوصل إلى شجرة الكستناء المذكورة. في الساعة التالية عانينا الكثير من الإحساس بالخوف من أن يكون "**فايل**" ماضيًا في طريقه إلى النجاح، بينما نحن نفشل. قلت :

– أتذكر أنني قرأت ذات يوم في إحدى الروايات البوليسية أن أحدهم قام بغمر ورقة مكتوبة في أحد الأحماض وإذا بجميع الكلمات تظهر بوضوح.

– أتعتقد أن... لكن ليس لنا شيء من هذا هنا.

– ولا أعتقد أن العم "**ميلز**" كان قد وصل إلى مثل هذه المعلومات المتقدمة في الكيمياء. لكن لا شك في أن كل ما هو عنده عادي...

تسلَّلنا خلف حاجز وبعد دقيقة أو دقيقتين على الأكثر كنت قد تمكنت من إشعال بعض الأغصان الدقيقة، ثم أمسكت بالورقة بالقرب من اللهب على قدر استطاعتي. وتقريبًا في الحال رأيت الحروف وهي تتضح أمام عيني أسفل الورقة. كان عليها بالتحديد كلمتان. وقرأت "**فينيلا**" :

– "**محطة كيركهيل**". وفي تلك اللحظة بالتحديد دار "**فايل**" حول الحاجز. سواء أسمع شيئًا أم لم يسمع، لست أدري، إنه لم يبد أي تعليق، لكن عندما ابتعدتُ عن الحاجز قلت لـ"**فينيلا**" :

– إنه لا يوجد محطة في "**كيركهيل**". ناولتني الخريطة وهي تتكلم. قلت وأنا أفحصها:

– لا، لكن انظري قليلاً. وبقلم رصاص رسمت خطًا على الخريطة.

– بالتأكيد، وفي مكان ما على هذا الخط...

– بالضبط.

– لكن لابد من معرفة المكان بالضبط. وقد أُلهمت للمرة الثانية.

– إنه معروف. هكذا صحت، وأمسكت بالقلم الرصاص من جديد، ووضعت خطًا.

– انظري. حينئذ أطلقت "**فينيلا**" صرخة.

– كم هو غباء، ورائع في الوقت نفسه! حقًا لقد كان العم "**ميلز**" رجلاً مسنًا وحاذقًا.

كانت لحظة معرفة المؤشر الأخير قد حانت. المؤشر الذي كما سبق وأعلمنا رجل القانون بأنه غير ملم به. كان عليه أن يرسل إلينا بطاقة بالبريد تحمل اسمه؛ لأنه كان لا يريد موافاتنا بأية معلومة أخرى. غير أنه لم يحدث شيء في الصباح حيث كان ينبغي أن يوافينا فيه. وإذ اعتقدنا أن "**فايل**" قد وجد وسيلة لتسلم خطابنا أو العمل على عدم وصوله إلينا، اجتزت أنا و"**فينيلا**" أصعب حالات الحزن. لكن حدث في صباح اليوم التالي، أن مخاوفنا قد هدأت والسر تكشف عندما تسلمنا الرسالة التالية المسطرة بخط رديء:

"سيدي العزيز أو سيدتي،

أقدم اعتذاري عن التأخير، لكنني كنت في الانتظار. وهانذا أعمل الآن كما طلب مني السيد "**ميليشاران**"، وأرسل إليكم هذه الورقة التي كانت في أُسرتي خلال سنوات عديدة وإن كنت لا أعلم ما يريد أن أعمل بها".

مع جزيل الشكر،

"**ماري كيرويس**"

وأشرت إلى:

– خاتم البريد: "**بريد**"؛ "لذا هذه الورقة كانت في أسرتي!".

على صخرة ستشاهد علامة
أيا... أخبرني عند أي نقطة
من "**هيمور**" يقصد؟ أولاً: (A)بالقرب من
هناك سترى فجأة النور الذي تبحث عنه.
ثم (B) منزل ريفي ذو سقف من قش وجدار.
درب طويل ومتعرج. هذا كله.
وجاء تعليق "**فينيلا**":

– إنها طريقة غير سليمة، البدء بصخرة، هناك صخور في كل مكان. كيف نستنتج أين الصخرة التي تحمل العلامة؟ قلت:

– دعينا نسترشد بالدليل، لابد أن هناك إشارة إلى اتجاه، وفي هذا الاتجاه سنجد شيئًا مخفيًّا يساعدنا على اكتشاف الكنز.

– أعتقد أنك على حق. هكذا أردفت "**فينيلا**".

– إنه (A)المؤشر الجديد سيمنحنا فكرة عن المكان الذي نجده، (B) المنزل الريفي. والكنز مخبأ في درب يحاذي المنزل الريفي. لكن واضح تمامًا أن الخطوة الأولى تبدأ بـ(A) وعلينا أن نجدها أولاً.

بالقياس مع صعوبة المرحلة الأولى، لا تحتاج المسألة الأخيرة إلى العم "**ميلز**" وإلى تفكير شديد والفضل في حلها يرجع إلى "**فينيلا**"... وعلى الرغم من ذلك، لم نتوصل إلى هذا الحل إلا بعد أسبوع، وكنا من حين إلى آخر نتقابل مع "**فايل**" في أثناء القيام ببحثنا في المناطق الصخرية، غير أن مجال البحث كان واسعًا. عندما توصلنا أخيرًا إلى اكتشاف الحل كان الوقت قد تقدم. فكان أن اقترحت – في ذلك الحين – التوجه إلى المكان المشار إليه. لم توافق "**فينيلا**":

– لنفرض أن "**فايل**" يحاول أن يكتشفه هو أيضًا وأننا سننتظر إلى الغد، فيكون هو قد رحل في هذا المساء ونحن نندم. وفجأة واتتني فكرة. سألت "**فينيلا**":

– هل مازلت تعتقدين يا "**فينيلا**" أن "**فايل**" هو الذي قتل "**إيوان كورجيج**"؟

– نعم.

– إذًا أعتقد أن أمامنا الآن فرصة لتحميله مسؤولية هذه الجريمة.

– إني أقشعر لمجرد ذكر هذا الرجل. بصراحة إنه شخص شرير من رأسه إلى أخمصي قدميه. أخبرني كيف ستقوم بذلك.

– سنعلن أننا اكتشفنا (A) ثم نواصل طريقنا، ومن المؤكد أنه سيتبعنا. وهو مكان معزول... بالضبط هو ما يلزم لإتمام المهمة. وإذا تظاهرنا باننا وجدنا الكنز فسوف يظهر ذاته.

– وبعد؟ قلت:

– وبعد سيحصل على مفاجأة صغيرة.

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل. كنا قد تركنا السيارة على مسافة بعيدة وسرنا بمحاذاة الجدار. كانت "**فينيلا**" تستعين بكشّاف ضوئي قوي. أما أنا فكان معي مسدس ولم أشأ أن أخاطر. فجأة تسمرت "**فينيلا**" في مكانها وهي تطلق صرخة مكتومة. ثم صاحت:

– انظر يا "**جوان**". لقد وجدناه. أخيراً.

في ظرف لحظة أفقت... لكن بعد فوات الأوان، كان "**فايل**" على بعد ست خطوات منا وبيده مسدس مصوب نحونا كلينا. قال:

– مساء الخير. هذا الكنز يعود إليَّ، من فضلكم سلموني إياه. سألته:

– أتريد أن أسلِّمك شيئًا آخر؟ نصف الخاتم البريدي المنتزع من يد الشخص الميت؟ أعتقد أن معك النصف الآخر؟ ارتجفت يده، ثم قال بأعلى صوته:

– ما هذا الذي تقوله؟

– الحقيقة معروفة. هكذا أجبته، لقد كنتما هنا معًا أنت و"**كورجيج**"، لقد سحبت السلم وحطمت رأسه بالحجر. إن الشرطة أكثر فطنة منك أكثر مما تعتقد يا... يا دكتور "**فايل**".

– إذاً، إنهم على علم؟ في مثل هذه الظروف سيحكم عليَّ بالإعدام لارتكابي ثلاث جرائم قتل لا واحدة. وصحت:

– انخفضي يا "**فينيلا**". في اللحظة نفسها دوى صوت مسدسه عاليا.

وقع كلانا في حالة فزع، وقبل أن يجد الفرصة لإطلاق رصاصة أخرى، إذا برجال في زي رجال الشرطة يظهرون من خلف السور حيث كانوا مختبئين. وما هي إلا

لحظة حتى كانوا يصطحبون "**فايل**" بعد أن وضعوا القيد في يديه. أخذتُ "**فينيلا**" التي كانت ترتجف بين ذراعي. قالت:

– كنت أعلم أني على حق. فإذا بي أصيح:

– لكن يا عزيزتي، إنها مخاطرة. كان من الممكن أن يقتلك.

– لكني لم أقم بذلك. ونحن نعلم مكان الكنز.

– حقًّا؟

– نعم، انظر. وكتبت كلمة: "سنذهب غداً لأخذه". أعتقد أنه سوف توجد أشياء كثيرة مخفية هناك.

كانت الساعة تعلن تمام الثانية عشرة ظهراً عندما قالت "**فينيلا**" بصوت خافت:

– "**إريكا**"، منفضة السجائر الرابعة. لقد حصلنا عليها كلها، سوف يسر عمنا "**ميلز**"، والآن... قلت:

– الآن نستطيع أن نتزوج ونعيش سعداء معًا حتى آخر أيامنا. قالت "**فينيلا**":

– وسنعيش في جزيرة "**مان**". أضفت:

– وبذهب "**مان**". قلت هذا وانطلقت بالضحك مسروراً، سعيداً.

*****

داخل الجدار

شخصيات الرواية:
- السيدة "**لمبريير**" : سيدة مجتمع.
- "**آلان إيفيرارد**" : فنان ورسام.
- "**إيزابيل لورينج**" : زوجة الفنان "**آلان**" .
- "**ويني**" : ابنة "**آلان**" .
- "**جين هاورث**" : فتاة رسمها "**آلان**" وإشبينة ابنته "**ويني**" .

كانت السيدة "**لمبريير**" هي أول من اكتشفت وجود "**جين هاورث**" . لقد قال أحدهم ذات يوم إن السيدة "**لمبريير**" كانت السيدة المكروهة في "**لندن**" ، لكنني أجد في ذلك شيئًا من المبالغة، والذي لا يدع مجالاً للشك أنها كانت تتمتع بالقدرة على معرفة الشيء الذي لا تتمنى أنت أن تراه ينتشر، وتعمل هي بكل ما لها من طاقات على عمله. وقد يحدث ذلك دائمًا بالمصادفة.

والحال هذه، تناولنا الشاي في أتيليه (مصنع ورشة) "**آلان إيفيرارد**" كان يعمل على تقديم الشاي من حين إلى آخر. أنا لا أعتقد أن هناك حاليا من ينكر على "**إيفيرارد**" لقب فنان موهوب وممتاز؛ إذ إن من أبرز لوحاته: "**كوليبر**" و"**لي كويسير**" وهما اللوحتان اللتان قدمهما في بداية عمله قبل أن يصبح مصور أشخاص يدويًّا –كانت المتاحف الوطنية قد امتلكتهما. وهذا الاختيار لم يتسبب في أبسط منافسة. لكن في التاريخ الذي أحدثكم عنه، كان "**إيفيرارد**" قد بدأ يشق طريقه.

كانت زوجته هي التي تنظم حفلات الشاي هذه؛ إذ كانت ترى في وضع زوجها هذا وضعًا مميزًا.. كان يحب "**إيزابيل**" إلى حد العبادة وكان ذلك بداهة؛ لأنه كان يشعر دائمًا بانه مدينًا لها. كان يلبي كل رغباتها، ليس عن ضعف شخصيته وإنما عن اقتناع بأن لها حق القيام بما تفكر فيه. وبالتفكير في مثل هذا الوضع، أرى أنه

ليس في ذلك إلا ما هو طبيعي؛ لأن "**إيزابيل**" كانت حقًّا دائمًا موهوبة. في بدء حياتها العملية هي التي افتتحت الموسم: جمال، وضع اجتماعي متميز، ذكاء كل الوسائل لاستخدام الطاقات الذهنية - وباستثناء المال، كانت تتمتع بكل شيء. ولم يكن هناك من يتوقع أنها ستتزوج عن حب؛ لأنها لم تكن قط فتاة مهيأة لذلك. وخلال موسمها الثاني، كان هناك ثلاثة يسعون إلى التقرب منها: شخص يرث الدوقية وسياسي ناجح ومليونير من "**جنوب إفريقيا**". ثم - الأمر الذي أثار دهشة الجميع - تزوجت أخيرًا بـ"**آلان إيفيرارد**": وهو فنان ناشئ لم يشتهر بعد.

وبحسب اعتقادي أن الناس استمروا في ذكرها بـ"**إيزابيل لورينج**" وليس "**إيزابيل إيفيرارد**"؛ تكريمًا لشخصها. وكثيرًا كان يقال: "لقد رأيت صباح اليوم "**إيزابيل لورينج**" مع زوجها، هذا الـ"**إيفيرارد**"، الفنان الناشئ".

كما كان يقال عن "**إيزابيل**" إنها هي التي "صنعت نفسها". وإن كان هذا الشخص معروف بأنه زوج "**إيزابيل لورينج**" كان هذا كافيًا لرفعته، لكن "**إيفيرارد**" كان من جبلة أخرى. ومع ذلك كان لذكاء وفطنة "**إيزابيل**" إزاء النجاح دور في تقدم "**آلان**". وقام بإعداد اللوحة "**كولير**".

أتمنى أن يعرف الجميع أن هذه اللوحة كانت تصور جزءًا من طريق محفور فيه خندق، والأرض المحروثة ذات اللون الضارب إلى الأحمر، ومجرى لصرف المياه بلون يجمع بين البني والأحمر اللامع والحفَّار المستند إلى معوله لكي يستريح قليلاً... وهو في ملابس من القطيفة المضلعة والملطخة بالوحل، مع منديل أحمر معقود حول العنق. كانت عيناه الخاليتان من الذكاء ترقبانك في اللوحة. العينان الوحشيتان المشرقتان... إنه عمل لامع، براق... سيمفونية من اللون البرتقالي والأحمر.. أدب كامل مكتوب عما يرمز إليه، عما ينبغي التعبير عنه. من جانبه كان "**آلان إيفيرارد**" يدعي أنه لم يشأ التعبير عن أي شيء. وهو يؤكد أنه كان في هذه الفترة موشكًا على الغثيان بعد أن اضطر إلى العودة بالذاكرة إلى مجموعة من أوقات غروب الشمس في "**فينيسيا**" وكانت رغبة ملحة في استخدام الألوان الإنجليزية مسيطرة عليه.

بعد ذلك أنتج "**آلان إيفيرارد**" اللوحة التصويرية التي أصبحت أسطورية تمثل

حانة من طبقة سفلى: "**رومانس**"، الشارع المكدّم (المرصوف) ذو اللون الأسود تحت المطر... الباب الموارب، الأضواء ورنين ارتطام الأكواب، والرجل القصير ذو الوجه الخالي من أي تعبير، والنظرة المتعطشة، الذي يدخل إلى هذا المكان لكي ينسى.

ولقد جعلته قوة هاتين اللوحتين أهلاً للقب "فنان دنيا العمال". أخيراً، كانت عنده شرفته، لكنه كان يرفض الالتجاء إليها. أما عمله الثالث والأكثر روعة، كان رسمًا تصويريًا للسيد "**ريفي هيرشمان**". رجل العلوم الشهير، المرسوم على قاعدة من المعوجات والبوتقات وفراش من قش. كانت المجموعة تدفع إلى وصف هذه اللوحة بانها ذات تاثير تكعيبي. لكن الخطوط الموحى بها غريبة.

وها هو قد انتهى حاليًا من تنفيذ لوحته الرابعة: وهي رسم تصويري لزوجته. كنا قد دعينا لمشاهدتها ونقدها. كان "**إيفيرارد**" يتطلع من النافذة، أما "**إيزابيل لورينج**" فكانت تنتقل من مجموعة إلى مجموعة، تتحدث عن التكنولوجيا بإتقان.

فما كان منا إلا التعليق عليها. كان لابد من ذلك. امتدحنا مادة الستان الوردي، مؤكدين أن فكرة استخدام القماش كقاعدة للوحة حقًّا مبتكرة؛ لأنه لم يسبق لأحد أن رسم لوحة على الستان بهذه الطريقة. فأخذتني السيدة "**لمبريير**" جانبا وهي من نُقَّاد الفن الأذكياء والتي أعرفها جيداً.. وقالت لي:

- اسمع يا "**جورج**"، ما الذي حدث له؟ لقد اختفت هذه الحيلة أو هذا الحذق، إن الستان ناعم. أوه! إنه كريه جدًّا. وجاء تعليقي:

- رسم تصويري لسيدة في ثوب من الستان الوردي؟

- بالضبط، غير أن الفن ممتاز والتعب الذي تحمله! يوجد هنا عمل لخمسة وعشرين لوحة رديئة.

- تقصدين أنه عمل متفنن جدًّا؟

- ربما يكون هذا ما أقصده. فإن كان فعلاً هكذا في هذا الإنتاج فقد أبرزه. سيدة جميلة في فستانها الستان الوردي. لماذا لم تعد لها صورة بالألوان؟

- بالتأكيد. هكذا أيدت السيدة "**لمبريير**" بازدراء. ألا ترى أن هذا الشاب

استخدم كل طاقاته معبراً عن مشاعره في إعداد رسم تصويري لـ"**إيزابيل**" ؛ لأنها "**إيزابيل**" لكنه ضَلَّ الطريق؟ قمت بحك رأسي متذكرًا صورة أخرى. لم يكن السيد "**ريفي هيرشمان**" ليبدو منتفخًا قط بطبيعته، لكن "**إيفيرارد**" منح صورته شخصية لا تنسى.

– ومع ذلك، "**إيزابيل**" توحي بذلك.. هكذا واصلت السيدة "**لمبريير**". قلت:

– قد يكون "**إيفيرارد**" غير موهوب في رسم السيدات؟ أجابت السيدة "**لمبريير**":

– ربما، في الواقع، نعم قد يكون هذا هو السر.

وحدث حينئذ أن السيدة "**لمبريير**" – بما لها من حذق – تناولت لوحة موضوعة على الأرض في أحد أركان الغرفة، وجهها يتجه نحو الحائط، كانت حوالي سبع أو ثماني لوحات مكدسة هناك. وبمحض المصادفة اختارت هذه السيدة "**لمبريير**"... لكننا نعود ونقول إنها تتمتع بحاسة؛ لذلك صاحت وهي تسلط عليها الضوء:

– كانت في بداية التنفيذ.

كانت السيدة أو الشابة الصغيرة في اعتقادي أنها لم تتجاوز الخمسة والعشرين أو الستة والعشرين عاما منحنية إلى الأمام، واضعة ذقنها على يدها. ولقد لفت نظري في الحال تفصيلان: حيوية اللوحة الخارقة وشراستها المذهلة. الوضع نفسه كان جافًا والألوان المستخدمة البني، وقاعدة باللون البني... فستان بني، عينان عسليتان (بنيتان) عينان تفيضان بالرغبة الصامتة. كان الشغف هو أبرز ما في الصورة. بعد أن فحصتها السيدة "**لمبريير**" في صمت لعدة دقائق، نادت "**إيفيرارد**":

– "**آلان**"، تعال إلى هنا قليلاً، من هذه؟

أطاع "**إيفيرارد**" ووصل. ولقد لاحظت في نظرته شعاع القلق الذي لم يتمكن من إخفائه تمامًا. قال للدفاع عن موقفه:

– هذا مجرد خربشة رسم، أعتقد أنني لن أتممه أبداً.

– من هذه؟ كررت السيدة "**لمبريير**" بإلحاح.

كان واضحًا أن "**إيفيرارد**" لا يرغب في الرد عليها، فكان هذا التكتم من قبله

دافعًا لها لكي تنطق بما هو أسوأ.

– إحدى صديقاتي، الآنسة "**جين هاورث**". قالت السيدة "**لمبريير**":

– لم أتقابل معها هنا قط.

– إنها لا تحضر مثل هذه المعارض. ثم أضاف بعد فترة صمت قصيرة جدًا:

– إنها إشبينة "**ويني**". كانت "**ويني**" – خمس سنوات – ابنة "**إيفيرارد**" وزوجته.

– حقًّا؟ هكذا أبدت السيدة "**لمبريير**" دهشتها. أين تسكن؟

– في شقة في "**باترس**".

– حقًّا. هكذا كررت السيدة "**لمبريير**" قبل أن تضيف:

– وما الذي استطاعت أن تعمله من أجلك؟

– تعمل من أجلي أنا؟

– نعم لك حتى أنها جعلتك.... جافًّا إلى هذا الحد. قال وهو يضحك:

– حسنًا اسمعيني، إنها ليست جميلة لكي أعمل منها "**فينيس**" (إلهة الجمال) بحجة الصداقة، أليس كذلك؟

– لقد عملت عكس ذلك. أردفت السيدة "**لمبريير**". لقد سلطت الضوء على كل عيب فيها، بل وبالغت في إظهارها، لقد جعلت منها كاريكاتيرًا. لقد حاولت أن تظهرها جافة، فظة... غير أنك لم تتوصل إلى ذلك. إن هذه الصورة لو أنك أتممتها فستحيا. تناول "**إيفيرارد**" هذا الكلام على محمل سيئ، ثم نطق من شفتيه بالآتي مؤيدًا:

– بالنسبة إلى رسم تخطيطي لها لا يعتبر رديئًا. لكن بالتأكيد هذا لا يعبر عن صورة "**إيزابيل**" بأي شكل. فهو يعتبر أفضل ما نفذت. كان قد نطق بكلماته الأخيرة بلهجة جافة وبشيء من التحدي، وكرر:

– أفضل شيء.

كان آخرون قد اقتربوا منا. وهم أيضًا فحصوا اللوحة التخطيطية. وإذا بصيحات وتعليقات تصدر من كل جهة، وهكذا بدأ الجو ينتعش. وبهذه الطريقة سمعت للمرة الأولى، التحدث عن "**جين هاورث**"، وفيما بعد، كنت سألتقي بها. لقاؤها

على دفعتين، سوف تتاح فرصة للاستماع إلى تفاصيل حياتها على لسان إحدى الصديقات المقربات إليها، وأيضًا الوقوف على كثير من البيانات عنها من "**آلان إيفيرارد**" نفسه. وحاليًّا، وقد توفيا كلاهما، أعتقد أن الوقت قد حان لدحض الشائعات التي تعمل جاهدة السيدة "**لمبريير**" على ترويجها.

عندما انصرف المدعوون حَوَّل "**إيفيرارد**" مرة أخرى صورة "**جين هاورث**" نحو الحائط، وحينئذ اخترقت "**إيزابيل**" الحجرة لكي تأتي إلى جواره. استفسرت وهي ساهمة، مفكرة:

– نجاح، هذا ما تعتقده؟ أو أنه ليس نجاحًا بالضبط؟ أسرع بسؤالها:

– الرسم التصويري؟

– لا، يا غبي، حفل الاستقبال. مفهوم أن الصورة تعد نجاحًا.

– لقد عملت على قدر استطاعتي على إتقانها. هكذا أردف "**إيفيرارد**". وقالت له "**إيزابيل**":

– ها نحن قد كسبنا هذا المجال. الآنسة "**شارمينجتون**" تريد أن تعد لها صورة.

– يا إلهي، أنا لست مصوراً متمرنًا في هذا المجال وأنت تعلمين ذلك.

– لكن يا "**آلان**" يا عزيزي. هكذا يصل المرء إلى الرفعة والثراء.

– ومن ذا الذي يرغب في ذلك؟ قالت وهي تبتسم:

– ربما أكون أنا.

بعد قليل شعر بالندم وتأنيب الضمير وبالحاجة إلى تقديم الاعتذار. لو لم تكن تزوجته، لا شك في أنها كانت ستثرى، وكانت تحتاج إلى المال؛ لأن متطلبات حياتها، حياة الترف التي اعتادتها، تحتاج إلى المال. قال:

– لأن وضعنا المالي في الأيام الأخيرة معقول.

– قد يكون هكذا، لكن الفواتير.

– الفواتير.... الفواتير.... دائمًا الفواتير. أخذ يذرع الحجرة وهو في حالة عصبية. وأخيرًا انفجر أشبه بطفل غاضب أو ثائر:

– وأيضا كفى، أنا لا أريد إعداد صورة للآنسة "**شارمينجتون**".

ابتسمت "**إيزابيل**" وكانت وقتئذ بالقرب من النار، دون أن تقوم بأية حركة،

توقف "**آلان**" عن التجول في الحجرة؛ لكي يقترب منها. ما هذا الذي تتمتع به في سكونها الذي كان يجذبه إليها مثل المغناطيس. كم كانت جميلة، ذراعاها وكأنهما منحوتان من أنقى رخام أبيض، اللون الذهبي الذي يتألق به شعرها.... شفتاها.... الشديدتا الحمرة، الممتلئتان.

قبَّلهما... وشعر بأنهما تجيبان شفتيه، ماذا بعد ذلك؟ بم تتمتع "**إيزابيل**" فيها شيء يهدئك ويخلصك من كل همومك؟ ها هي تجذبه بسكينتها وهو يبدو سعيداً بالبقاء بالقرب منها. بعد قليل تمتم:

– سأقوم برسم الآنسة "**شارمينجتون**". أية أهمية لذلك؟ سوف أتضايق إلى أقصى حد... لكن، بعد كل ذلك، ينبغي للرسامين أن يأكلوا. ها هو السيد "**ديبانسو**" الرسام وزوجته السيدة "**ديبانسو**"، وابنة السيد "**ديبانسو**"، كلهم يشكون من الجوع. قالت له "**إيزابيل**":

– بالنسبة إلى الابنة، يجب عليك مقابلة "**جين**" ذات يوم. لقد مرت بالأمس وأخبرتني بأنها لم ترك منذ شهور.

– "**جين**" أتت إلى هنا؟

– نعم... لكي ترى "**ويني**". ومن جانبه استبعد "**ويني**":

– هل رأت صورتك؟

– نعم.

– وماذا قالت لك عنها؟

– إنها رائعة.

– أوه. قال هذا وقطب حاجبيه وكان مستغرقًا في التفكير، ثم أبدت "**إيزابيل**" ملاحظتها:

– أعتقد أن السيدة "**لمبريير**" تشك في أنك مخطئ في حق "**جين**". وقد تأثر "**آلان**" ودمدم:

– يا لها من غبية! ما هذا الذي تتخيله؟ وترى ماذا تتصور غيره؟

– نعم، لكن أنا، لا أتخيل شيئًا، هكذا أردفت "**إيزابيل**" مبتسمة. هيا أسرع واذهب للقاء "**جين**". وإذا بصوت داخله يحدثه: "لماذا ترغب "**إيزابيل**" في أن

تذهب عند "**جين**"؟ لابد أن هناك سببًا". فجأة سألها:

– هل تحبين "**جين**" كثيرًا؟ قالت:

– إنها ملاك.

– نعم، لكن هل هناك حقًّا صداقة من نحوها؟

– بالتأكيد. إنها تتفانى في خدمة "**ويني**". وهي ترغب في اصطحابها إلى البحر الأسبوع القادم. وأنت لا ترى مانعًا لذلك، أليس كذلك؟ لأن ذلك سيفسح المجال.

– وهو تفكير جيد. فإذا به يلقي نظرة شك إلى "**إيزابيل**": "ترى هل طلبت من "**جين**" الاهتمام بـ"**ويني**"؟".

نهضت "**إيزابيل**" وخرجت من الحجرة وهي تدندن بصوت خافت. على أية حال، لا أهمية لذلك. سيتوجه إلى "**جين**".

كانت "**جين هاورث**" تسكن في الطابق الأخير في عمارة تطل على "**باترس بارك**" بعد أن ارتقى "**إيفيرارد**" السلالم وضغط على زر الجرس، شعر بحنق نحو "**جين**". لماذا لم تختر مسكنًا أفضل من هذا، يسهل بلوغه؟ ولما لم يحصل على رد من الداخل، ضغط على الزر ثلاث مرات وقد ازداد ضيقه، لماذا لم تعمل على وجود خادمة معها تفيد في فتح الباب؟ فجأة فُتح الباب وكانت "**جين**" بنفسها هي التي مثلت على العتبة. سألها "**إيفيرارد**" دون أن يهتم بتقديم التحية:

– أين "**أليس**"؟

– أخشى أن... أقصد أنها ليست على ما يرام اليوم. فزع "**إيفيرارد**":

– إنها في حالة ثمول، أليس كذلك؟ مؤسف أن تكون "**جين**" كذابة على هذا النحو. أجابته "**جين**" مكرهة:

– يخيل إليَّ أنه هكذا.

– دعيني أذهب لأراها. اخترق الشقة بخطى واسعة. كانت "**جين**" تتبعه خاضعة، وجد "**أليس**" في المطبخ. لم يكن هناك أدنى شك في حالتها... ثم تبع "**جين**" إلى الصالون بصمت. وفي الحال قال ثائرًا:

– لابد أن تتخلصي بأسرع ما يمكن من هذه الثملة. ليست هذه هي المرة الأولى لأقول لك ذلك.

– أعلم جيداً يا "آلان" ، لكنني لا أستطيع تنفيذ ذلك، هل غفلت عن أن زوجها مسجون؟ أردف "إيفيرارد" :

– أين هو حاليًا وكم من مرة سكرت هذه المخلوقة في خلال الأشهر الثلاثة التي تقضيها في خدمتك؟

– ليست كثيرة، هذه المرات ربما كانت أربع أو خمس.

– أربع أو خمس! تسع أو عشر مرات قد يكون بعد ذلك.. وكيف تجدين الطعام الذي تعده. لا يؤكل. هل تقدم إليك المعونة التي تسهل حياتك في هذه الشقة؟ لا شيء.. يا إلهي. أخلي سبيلها من صباح غد وأحضري فتاة قد تفيدك. ألقت إليه "جين" نظرة غير راضية. استرخى "إيفيرارد" في مقعده ذي المساند ودمدم:

– لن تنفذي، إنك فتاة عاطفية جدًا. وأيضًا ما هذا الذي أسمعه؟ من ذا الذي اقترح اصطحابك "ويني" إلى البحر، "إيزابيل" أم أنت؟

– أنا بالتأكيد. هكذا أسرعت "جين" بالرد. قال "إيفيرارد" :

– ليتك فقط تتعلمين قول الحقيقة يا "جين" ، في هذه الحالة سوف أشعر بمودة نحوك... والآن اجلسي، وحاولي أن تظلي على الأقل عشر دقائق دون أن تخترعي الأكاذيب.

– وبعد يا "آلان" ! هكذا أنَّت "جين" وهي تجلس.

فما كان من الرسام إلا أنه فحصها بعينين نافذتين في خلال دقيقة أو دقيقتين. لقد كانت السيدة "لمبريير" على حق.. لقد كان جافًا جداً عند قيامه برسم "جين" . كانت "جين" تقريبًا أو تكاد أن تكون جميلة... إن لم تكن جميلة فعلاً. كانت مقاييس جسمها تتناسب مع قواعد الجمال اليوناني، وكانت مبالغتها في محاولة العمل على أن تجعله يعجب بها هو الذي كان يجعلها غير سوية في تصرفاتها معه. أما هو فقد بالغ فعلاً في إظهار عيوب وجهها عندما قام برسمها.

لماذا؟ لماذا كان من الصعب عليه أن يبقى خمس دقائق في الحجرة نفسها مع "جين" دون أن يشعر نحوها بنفور متزايد؟ وليقال ما يُقال عنها، لقد عملت "جين" على أن تكون محبوبة، لكنه لم يشعر قط في صحبتها بالارتياح، كما كان مع "إيزابيل" . ومع ذلك كانت "جين" تسعى دوما إلى جعله يُعجب بها وأن

ترضيه ولديها رغبة ملحّة في أن يكونا ولو لمرة واحدة متفقين في الرأي... لكن وا أسفاه! كانت عاجزة عن إطفاء ما بأعماق أفكارها.

تطلع حوله. كان كل شيء عن "**جين**" متميزاً. بعض الأشياء رائعة، روائع حقًّا. على سبيل المثال، هذا ميناء "**باترس**" وإلى جانبه بالضبط زهرية قيمة مزدانة بالورد وهي من رسم يدوي. أمسك بهذه الأخيرة.

– هل تتضايقين يا "**جين**" لو أني ألقيت بها من النافذة؟

– آه، يا "**آلان**"، لا أرجوك...

– ماذا تبغين من جمعٍ مثل هذه الأنواع البسيطة كانت أو القيمة؟ إذا كنت تعتزمين بيعها ثانية فحسنًا تتصرفين. لكن مثل الجمع بهذه الطريقة؟!!

– أعلم يا "**آلان**". ولا تظن أني لا أدري بذلك... لكن يحدث أن أغلبها مقدم لي بصفة هدية. مثلاً هذه الزهرية لقد أحضرتها إليَّ الآنسة "**بيتس**" من "**مارجيت**"... وهي فقيرة جدًّا ولابد أنها دفعت فيها كل ما عندها اعتقاداً منها أنها سوف تسعدني بها، فكنت لا أستطيع وضعها إلا في مكان مميز.

لم يعلق "**إيفيرارد**"، واستمر في التطلع إلى كل ما في الحجرة، كان يوجد على الحائط أشياء ثمينة وأيضًا كمية كبيرة من صور الأطفال الصغار. وفيها صور أطفال حديثي الولادة. وإن كانت الأمهات لا يجدن أنهن قابلات للتصوير لكن صديقات "**جين**" كن حريصات على إرسال تذكارات أولادهن لعزيزتهن فور ولادة كل طفل. كانت "**جين**" تعتز دومًا بهذه الصور.

– وما هذا الكم الهائلِ الرديء؟ هكذا استفسر "**إيفيرارد**" وهو يتفحص بعينين ناقدتين هذه الأشياء أيضًا:

– بل وتلك الصغيرات لم يسبق لي رؤيتهن. أجابته "**جين**" مصححة:

– هذه؟ إنها المولودة الأخيرة لـ"**ماري كارينجتون**".

– مسكينة يا سيدة "**كارينجتون**" – قال "**إيفيرارد**" معلقًا ومبديًا إشفاقه عليها– يخيل إليَّ أنك سوف تدعين أنك مغرمة بهذه الصغيرة الشنيعة التي تتأملك طوال اليوم. أجابت:

– إنها طفلة رائعة وأمها أقدم صديقة لي.

– أمينة ومخلصة يا "**جين**" . فعلاً جندي شجاع ومحب. إذًا هكذا نجحت "**إيزابيل**" في تحميلك مسؤولية العناية بـ"**ويني**" ، أليست هذه هي الحقيقة؟

– لقد قالت إنكما ترغبان في السفر إلى "**اسكتلندا**" . وأنا منذ زمن أتساءل عمَّا إذا كنت ستقبل أن تعهد لي بها، لكنني لم أجرؤ على توجيه مثل هذا السؤال إليك.

– في إمكانك أخذها، وهذه لمحة طيبة من طرفك.

– إذًا أعتبر الأمر منتهيًا. قالت هذا مبتهجة. حينئذ أشعل "**إيفيرارد**" سيجارة. وسألها:

– هل أطلعتك "**إيزابيل**" على الصورة الجديدة؟

– نعم.

– وما رأيك فيها؟ فردت بصوت يكاد لا يسمع:

– إنها رائعة، عمل رائع حقًّا. انتفض "**آلان**" وكادت السيجارة تقع من يده.

– ربي... لا يا "**جين**" ، ليس هكذا. لا تقولي لي هذا. كفاك كذبًا.

– أؤكد لك يا "**آلان**" أنها رائعة.

– ألم تدركي حتى الآن أني أقيِّم نبرة صوتك؟ ربما تكذبين إرضاءً لي، لكن لماذا لا تكونين صريحة؟ أتظنين أني أرغب في سماعك وأنت تخبرينني بأنها رائعة في حين أنا و أنت نعلم يقينًا أنها ليست كذلك. لقد ماتت هذه الصورة، نعم لقد ماتت، ولقد حضرت عندك حتى تكون نيتي صافية. "**إيزابيل**" لا تعرف شيئًا عن هذا الأمر ولا عن أسلوبك، لكنك تعلمين وكنت دائمًا تعلمين، ومن جانبي كنت أعلم أنك ستقولين لي إنها رائعة، إنك لست مدركة لأثر كذبك هذا وعندما أريتك "**رومانس**" ، لم تقولي شيئًا بالمرة... بل التزمت الصمت... وكل ما سُمع منك كان صوت حشرجة.

– "**آلان**" ...

لم يدع لها "**إيفيرارد**" فرصة للكلام. كانت "**جين**" مازالت تؤثر فيه وهو مدرك لذلك. ومن العجيب أن مثل هذه الفتاة الوديعة تستطيع أن تؤثر في أعصابه وتجعله يثور، ثم استطرد:

– ربما تظنين أني انتهيت. لكنك بذلك تخطئين، أنا مازلت قادرًا على تنفيذ

أكثر من صورة بالجودة نفسها التي كانت بها "**رومانس**"... وربما أفضل، إذا أتيحت لي الفرصة. سوف ترين يا "**جين هاورث**". ثم غادر المكان مثل البرق بخطى واسعة، متجاوزا "**باترس بارك**" وسار في "**البير بريدج**"، وهو لا يزال يرتجف من الغيظ. مرة أخرى هذه الـ"**جين**". ومع كل ذلك، ما الذي تعرفه فتاة مثلها عن الرسم؟

وأيضًا ما قيمة وما تأثير رأي مثل رأيها... اهتزت لكلماته وانفرجت شفتاها، انفرجتا قليلا وعلت الحمرة وجهها. ربما كانت ستبدأ بالنظر إلى الصورة ثم بعد ذلك تتحول عيناها نحوه، وكما هو محتمل قد صمتت.

لقد رأى اللوحة التي كان سيرسمها وسط الجسر، لقد أتته من حيث لا يدري. لقد رآها مرسومة وسط الضباب، أم أنها كانت في ذهنه؟ وفي متجر لبيع الآثار القديمة الرديئة وخلف الخزانة كان يجلس يهودي، شخص قصير وماكر، وأمامه الزبون، شخص بدين، يبدو عليه الثراء. كان يعلوهما على رف تمثال نصفي من الرخام. كانت الإضاءة مسلطة بالتحديد على الوجه ذي الجمال اليوناني القديم، المتعالي واللامبالي للتجارة أو للمقايضة.

– العارف أو الخير. هكذا سأدعوه. دمدم "**آلان إيفيرارد**"، وهو نازل عن الرصيف، فقد توازنه وغشيته حافلة. العارف، نعم سأريه لـ"**جين**".

فور دخوله المنزل، قصد مرسمه مباشرة. ورأته "**إيزابيل**" وهو منهمك في استخراج لوحات لم ترسم بعد.

– لا تنس يا "**آلان**" أننا سنتناول العشاء عند آل "**مارس**". هز "**إيفيرارد**" رأسه بضيق وقد فرغ صبره:

– لا يهم آل "**مارس**". لابد لي أن أعمل. إني ممسك بشيء، لكن ينبغي أن أثبته، أن أثبته على اللوحة قبل أن يهرب مني. اتصلي بهم هاتفيًا وأخبريهم بأنني توفيت. وقفت "**إيزابيل**" برهة تنظر إليه، ثم خرجت من الحجرة. لقد كانت فعلاً موهوبة للتعايش مع شخص موهوب. اتصلت بالتليفون بهذه الأسرة وقدمت إليها عذرًا مقبولاً. تثاءبت قليلا وهي تتطلع حولها. ثم جلست أمام مكتبها وشرعت في الكتابة.

"عزيزتي "**جين**"،

شكراً جزيلاً للشيك الذي تسلمته اليوم. إنك حقًّا مثال للطيبة نحو صغيرتك. ستقوم هذه الجنيهات بأعمال رائعة. إن الأبناء لا يقدرون بمال، إنهم يساوون عيوننا. بما أنك متعلقة على هذا النحو بـ"**ويني**"؛ لذلك أجدني لم أخطئ عندما قصدتك لهذه المهمة. كان "**آلان**" مثل جميع الموهوبين لا يستطيع أن يعمل إلا في المجال الذي يرغب فيه... أتعشم أن أراك قريباً".

أكرر تحياتي،

"**إيزابيل**"

بعد عدة شهور، عندما انتهى العارف، "**آلان**" دعا "**جين**" لكي تحضر وتراه، لكن العمل لم يأتِ في المستوى نفسه الذي كان يتمناه، وعلى كل كيف يكون هذا الأمر ممكنا؟ كان يشعر بنشوة المبدع. هذه اللوحة، حقًّا لقد رسمها وأجاد رسمها. لم تقل له "**جين**" في هذه المرة إنه عمل رائع. علت الحمرة وجنتيها وانفرجت شفتاها. نظرت إلى "**آلان**" وقرأت في عينيه ما كان يتمنى أن يقرأ فيهما. كانت "جين" تعلم ذلك.

لم تعد اللوحة متأثرة بأفكاره، وبدا الاهتمام بالعالم المحيط به. كانت "**ويني**" قد استفادت كثيراً من الفترة التي قضتها على شاطئ البحر، لكنه كم كانت دهشته عندما لاحظ أن ملابسها تدعو إلى الرأفة. فاشار بذلك إلى "**إيزابيل**".

– "**آلان**"، أنت من لا تلاحظ شيئًا بالمرة. أنا أحب أن تكون ملابس الصغار غاية في البساطة بقدر الإمكان؛ لأنني أنفر من مشاهدتهم في ملابس فاخرة.

– لكن هناك حلاًّ وسطا بين البساطة والملابس الرديئة. لم تعارض "**إيزابيل**" واشترت فوراً فستانًا جديداً لـ"**ويني**". وبعد يومين، تذكر "**آلان**" ما عليه من ضرائب. وكان دفتر حسابه في البنك مفتوحاً أمامه. بينما كان يبحث عن دفتر زوجته "**إيزابيل**" في درج مكتبها فجأة دخلت "**ويني**" ومعها دمية. قالت:

– أعرف فزورة يا أبي، هل تعتقد أنك ستجد لها حلاًّ؟ داخل جدار أبيض مثل الحليب (اللبن)، ملفوفة في ستارة ناعمة كالحرير، غارقة في محيط من نقاء الكريستال، كانت تظهر تفاحة من ذهب، هل عرفت ما هو هذا الشيء؟ أجابها "**آلان**" شارداً؛ لأنه كان غارقًا في التفكير في أبحاثه:

– تقصدين به والدتك؟ قهقهت "**ويني**" وهي تقول:

– ما هذا يا أبي؟ إنها البيضة. كيف فكرت في أمي؟ ابتسم "**آلان**" بدوره وصارحها قائلاً:

– في الحقيقة أنا لم أكن مصغيًا إليك.. على أية حال لست أدري ما الدافع إلى ذكر والدتك.

جدار ناصع البياض كالحليب (اللبن)، ستارة، كريستال، كان هذا يمثل في اعتقاده "**إيزابيل**". وأنها خدعة كلمات. أخيراً وجد دفتر البنك. وأسرع بالبدء في مطالبة "ويني" بمغادرة الحجرة. ثم بعد دقائق قليلة، دفعته صيحة دهشة إلى رفع وجهه.

– "**آلان**"!

– آه، إنك أنت يا "**إيزابيل**"، أنا لم ألمحك عندما دخلت. تعالي قليلاً إلى هنا؛ لأنني غير مدرك لما هو مكتوب على دفترك.

– ما الذي دفعك إلى الحصول على دفتر حسابي في البنك؟ تفرّس فيها وقد توتّرت. ورآها على غير ما اعتاد أن يراها فيه؛ لأنه لم يرها قط متضايقة.

– لم أكن متصوراً قط أنك ستأخذين هذا التصرف بصورة سيئة.

– نعم، أجد أن موقفك سيئ.. سيئ جداً؛ لأنه ليس من حقك أن تبحث في حاجاتي. ثار "**آلان**" بدوره:

– أقدم إليك اعتذاري. لكن طالما بحثت فيها كلها أي في حاجاتك فربما تسمحين وتوضحين لي ما هو مكتوب على دفترك. على قدر ما حكمت، ليس أكثر من خمسمائة جنيه وضعت في حسابك، وأنا لا أعرف مصدرها.. من أين ظهر هذا المبلغ؟

كانت "**إيزابيل**" قد استعادت ثباتها وهدوءها التام، وألقت بنفسها في مقعد ذي مساند، ثم قالت بنبرة هادئة:

– ليس هناك ما يدفع إلى هذا الانفعال وأن تركب أعلى ما في خيلك يا "**آلان**"، إن هذا المبلغ ليس أجراً عن خطيئة ولا عن أي شيء آخر من هذا النوع.

– من أعطاك هذا المبلغ؟

– إنه من سيدة ، من إحدى صديقاتك وهو ليس لي بالمرة. إنه لصالح "**ويني**" .

– إنه خاص بـ"**ويني**"؟ تقصدين... أن "**جين**" هي التي سلمته لك؟ حكت رأسها.

– إنها تحب الصغيرة إلى حد العبادة.... وتشعر دائما بأنها لا تعمل بما فيه الكفاية من أجلها.

– كان بها، لكن... يبدو لي أن مثل هذا المبلغ كان من المفروض استثماره لصالح "**ويني**" .

– آه، لم يكن هذا المبلغ لمثل هذا الهدف ولا للادخار، إنه لتغطية نفقاتها من ملابس وما شابه ذلك. لم يعلق "**آلان**" في الحال. كان يفكر في فساتين "**ويني**" ... وفي ملابسها الرخيصة.

– حسابك واضح ومكشوف، هل تعلمين ذلك أيضًا؟

– مكشوف؟ هذا هو الوضع دائمًا.

– نعم، لكن مع وضع هذا المبلغ. مبلغ الخمسمائة جنيه في الاعتبار.

– يا عزيزي "**آلان**" ، لقد أنفقتها من أجل "**ويني**" وبالطريقة التي رأيتها صالحة. أؤكد لك يا "**آلان**" أن "**جين**" راضية تمامًا.

لكن "**آلان**" لم يرد. غير أن هكذا كانت قدرة "**إيزابيل**" وهدوؤها الذي لم يتبعه. ومع كل، لم يكن ليكفي "**إيزابيل**" المبلغ الذي سلم لها لصالح ابنتها. كما حدث أيضًا في هذا اليوم وصول فاتورة – من باب الخطإ – إلى السيد "**إيفيرارد**" . كانت من عند ترزي من "**هانوفير سكوير**" وكانت بمبلغ مائتي جنيه. سلمها إلى "**إيزابيل**" بصمت. وهذه الأخيرة ألقت إليها نظرة وابتسمت:

– مسكين يا عزيزي، أسلم تمامًا أن مثل هذه الفاتورة تعتبر عبئا عليك. ثم توجه إلى "**جين**" في صباح اليوم التالي.

بدت "**جين**" غاية في الحنق والتملص. كان لا ينبغي أن يتضايق "**آلان**" إلى هذا الحد. إن "**ويني**" كانت ابنتها. وإن السيدات يدركن هذه الأمور، لكن الرجال لا يدركونها، وبداهة إنها لم تفكر في إهداء "**ويني**" فساتين بخمسمائة جنيه. ليته

يترك هذه الأمور؛ لأنها و "**إيزابيل**" وحدهما المسؤولتان عنها وهما متفاهمتان تماماً.

انصرف "**آلان**" وقد ازدادت حالة عدم الرضا عنده. لقد شعر بأنه لم يقم بالسؤال الوحيد الذي كان يعتزم توجيهه. كان يرغب في سؤالها عما إذا كانت "**إيزابيل**" قد طالبتها بنقود من أجل "**ويني**"؟ وإن كان لم يوجه إليها هذا السؤال فإنما كان ذلك خشية من أن تتمادى "**جين**" في الكذب.

فوق كل ذلك، كان قلقاً. كانت "**جين**" مفتقرة إلى المال وهو يعلم ذلك... كان لا ينبغي أن تتجرد تماما من كل ما لديها من مال. حينئذ قرر مناقشة الموضوع مع "**إيزابيل**"، وهذه الأخيرة بدت مطمئنة وهادئة، ومن المفترض أن المنطق يقتضي أنها لا يمكن أن تدع "**جين**" تنفق فوق طاقتها. بعد مرور شهر، توفيت "**جين**".

كانت وفاتها بسبب إنفلونزا شديدة تحولت إلى التهاب رئوي. كان "**آلان إيفيرارد**" بالنسبة إليها – وفقا لرغبتها – منفذاً لوصيتها والسماح بأن يؤول كل ما تملك إلى "**ويني**". وكان هذا الكل قليلا. وكان إذاً على "**آلان**" أن يغرق في أوراقها، وكانت قد تركت فيها ملفًّا سهل التنفيذ، رسائل تطلب معونة، خطابات عرفان بالجميل... والعديد من الإثباتات لكرمه وأعماله.

عندما فرغ من مهمته هذه وقعت بين يديه مذكراتها. كان مدوناً عليها: "يقرؤها **آلان إيفيرارد**" بعد وفاتي. لقد لامني كثيراً على عدم قولي الحقيقة وكأني موجودة هنا". كانت تتلخص في إعلان حبها له.. وورد بها الآتي:

"أعلم يقينا أنني كثيراً ما تسببت في إثارتك وأنا لا أجد مبررا لهذه التصرفات؛ لأنني كل ما كنت لأسعى إليه من خلال هذه التصرفات هو أن أُعجبك. كنت أسعى إلى مشاهدة انعكاس هذا التصرف في عينيك".

لم تخطئ "**جين**" إذا كان "**آلان**" قد قام بمثل هذه الاكتشافات كانت صادقة، وكانت تكدس أدراجها. كانت قبل وفاتها بأيام قد حرقت كل خطابات "**إيزابيل**".. أما خطاب "**آلان**" فكان خافياً في درج الكومودينو. كانت "**إيزابيل**" في هذه الخطابات لا تهتم بمواصلة الاعتقاد أن المبلغ الذي كانت تطلبه كان مخصصاً لصالح "**ويني**".

جلس "**آلان**" أمام المكتب الصغير، يتطلع من النافذة وهو شارد. ثم وضع دفتر الشيكات في جيبه وغادر الشقة. وكان يشعر بالثورة تشتد بداخله طوال مسيرته عند التوجه إلى "**شيلس**".

لم تكن "**إيزابيل**" موجودة عند عودته... وكان حاضراً إلى ذهنه كل ما يعتزم أن يقوله لها... ثم في يأسه، دخل الاستديو وأخرج صورة "**جين**" التي كان يعدها ولم ينته منها بعد، ووضعها على حامل بجوار صورة "**إيزابيل**" التي كان قد أعدها على الستان الوردي.

حقًّا أن "**لمبريير**" لم تكن مخطئة: كل ما في صورة "**جين**" يتنسم الحياة، تأملها، عيناها تمتلئان حرارة، جمالها الذي لم ينجح في إنكاره. كان كل ذلك عند "**جين**". لقد كانت – حسب تفكيره – الفتاة المتعطشة إلى الحياة إلى أقصى درجة. وحتى حاليًّا كان يصعب عليه النظر إليها كفتاة ميتة.

ثم انتقل بعد ذلك بتفكيره إلى لوحاته الأخرى: "**كولير**" و"**رومانس**" والسيد "**ريفي هيرشمان**". وكانت جميعها – مع كل – تمثل "**جين**"، التي كانت تتراءى له في كل واحدة منها.

فجأة، التفت عند سماع صوت في الحجرة، إنها "**إيزابيل**" التي كانت قد دخلت الاستديو. كانت مستعدة لتناول العشاء، كانت ترتدي فستاناً للسهرة أبيض في غاية البساطة، لكنه كان يبرز لون شعرها الذهبي.

توقفت ولم تنطق بما كانت تعتزم قوله.. ثم جلست على الأريكة وهي تلقي إليه بنظرات استفسار. كانت كعادتها تعمل على الظهور بالهدوء التام. حينئذ أخرج "**آلان**" دفتر الشيكات من جيبه:

– لقد اطلعت على كل أوراق "**جين**".

– نعم؟ حاول التزام السكينة مثلها والعمل على ألا يرتجف صوته:

– إنها لم تتوان طوال السنوات الأربع الماضية عن مدِّك بالنقود.

– نعم لصالح "**ويني**".

– لا، لم يكن ذلك لصالح "**ويني**". لكنكما كنتما متفقتين على ما هو خلاف ذلك. هل تعلمين أن "**جين**" كانت تبيع ما عندها لكي تغرقك بالملابس...

الملابس التي تحتاجين إليها؟ وكانت تحيا حياة الكفاف. كانت "**إيزابيل**" - طوال هذه الفترة - تنظر إلى وجهه. ثم اعتدلت في جلستها. وقالت بهدوء:

- ليس في استطاعتي القيام بشيء ما في هذا الموقف إذا كانت "**جين**" قد جردت ذاتها مما عندها أكثر مما كان ينبغي أن تقوم به (هكذا قالت بنبرة اتزان كامل) كل ما كنت أتخيله أنها تمتلك كل ما يساعدها على التصرف على هذا النحو. لقد كانت تحبك إلى حد الجنون... أرجوك بالنسبة إلى كلمتي هذه أرجو أن تصدقني؛ لأنني كنت أتحقق من ذلك دائمًا.. أما اندفاعك في كل مرة تراها.. فأجدك تسرع لكي تقضي عندها عدة ساعات. الوضع الذي لو أن كثيرات من الزوجات في مكاني لصرخن بأعلى صوتهن، لكني حرصت على عدم التصرف بهذه الصورة. شحب وجه "**آلان**" وأردف:

- بالضبط. وعوضًا عن ذلك جعلتها تدفع.

- إنك مازلت تواصل توجيه اتهاماتك لي. وهذا تجريح يؤلمني. ليتك تتخذ بعض الحذر.

- إذا كنت ترين أن هذه المبالغ ليست لهذا الغرض فلماذا إذًا كان من السهل لك أن تتقبلي الابتزاز أو الموافقة على أخذ كل هذه المبالغ من "**جين**"؟

- في الواقع أنا لا أستحقه ولا أدري أية مودة تكنها لي. قد يكون ذلك تعبيرًا عن حبها لك أو حرصًا منها على الاحتفاظ بك. هنا اعترف "**آلان**" بكل بساطة، وقال:

- نعم، هذا ما كانت تبغيه... وكانت تدفع ثمن حريتي... الحرية في العمل كما كنت أريد. نعم كانت تهدف إلى دفع هذه المبالغ؛ اعتقادًا منها أنك كلما توفرت لك سبل الرفاهية ستدعينني أعيش في سلام... لن تؤاخذيني على أي تصرف. لم تعلق "**إيزابيل**" على كلماته. فصاح "**آلان**" في أوج ثورته:

- أليست هذه حقيقة؟

لقد أثار هدوء "**إيزابيل**" التام "**آلان**" حتى خرج عن صوابه. في هذه الأثناء كانت "**إيزابيل**" تنظر إلى أسفل، ثم رفعت عينيها وأعلنت بنبرة عادية:

- تعال إلى هنا يا "**آلان**".

كانت في هذه الأثناء تربت الأريكة بجوارها. توجه إليها وكان قلقًا وجلس على هذا المكان، حريصًا على عدم النظر إليها ومع ذلك يعرف جيداً كم هو خائف.

– "**آلان**" . هذا كل ما نطقت به "**إيزابيل**" بعد قليل.

– ماذا؟ قال هذا وهو مازال عصبيًا.

– من الممكن أن يكون كل ما قلته الآن صحيحًا. لا يهم. أنا كما أنا، أنا المستفيدة وأنا لي مطالب واحتياجات... محتاجة إلى ملابس وإلى نقود ومحتاجة إليك. لقد توفيت "**جين**" يا "**آلان**" .

– ماذا تقصدين بقولك هذا؟

– لقد توفيت "**جين**" . ومن الآن فصاعداً أنت لي بالكامل، الوضع الذي لم يسبق لي قط الإحساس به. تفرس "**آلان**" فيها... وفحص عينيها ورأى فيهما الشعور بالامتلاك؛ فأحس في داخله بالثورة... وفي الوقت نفسه بالسحر والجاذبية.

– من الآن فصاعداً ستكونين لي وحدك. ولقد عرف إذًا "**إيزابيل**" على النحو الذي لم يعرفه في الماضي.

– هل تريدين مني أن أكون لك عبداً؟ هل ينبغي لي أن أرسم ما ستطالبينني برسمه وأن أحيا حسبما ترغبين، مرتبطًا بك، بل خاضعًا لك؟

– اعتبره كما يحلو لك. بم تفيد الكلمات؟

في الحال شعر بذراعي "**إيزابيل**" تحيطان بعنقه، ذراعان بياضهما ناصع ناعمتان وفي متانة جدار. كانت تتردد في ذهنه أجزاء من جملة "جدار أبيض بلون الحليب (اللبن) وها هو حتى الآن داخل الجدار، هل سيتمكن من الخروج منه؟ هل كانت لديه فقط الرغبة في الهرب منه؟ وسمع صوت "**إيزابيل**" في أذنيه يردد:

– ماذا ننتظر من الحياة خلاف ذلك؟ أليس كافيًا؟ الحب... السعادة... النجاح... الحب...

كان الجدار حاليًا يبدأ بالتضييق عليه من كل جانب... "الستارة ناعمة مثل الحرير" . كانت هذه الستارة تحيط به، وتخدره قليلاً، لكنها كانت هادئة وناعمة.

حاليًا أيضًا كانا يشعران معًا بالسلام، بعيداً عن المحيط الذي من الكريستال. ومنذ تلك اللحظة، الجدار المرتفع، العالي جدًا كان يزيل ما تبقى... كل ما كان

يجرح الشعور . . . وكف عن التجريح . . . وبعيداً عن هذا المحيط ، أصبحت التفاحة الذهبية بين أيديهما .

لقد اختفى تماماً الضوء المسلط على صورة "**جين**" .

*****

سر خزانة "بغداد" الغامض

شخصيات الرواية:

- "**هيركيول بوارو**": مخبر سري يعمل لحسابه الخاص.
- "**هاستنجز**": صديق "**بوارو**".
- السيد "**كلايتون**": المجني عليه.
- السيدة "**مرجريتا**": زوجة السيد "**كلايتون**".
- القائد "**جاك ريتش**": المضيف.
- السيد "**كورتيس**": صديق "**كلايتون**".
- الخادم "**بيرجوين**": خادم السيد "**ريتش**".

في الحقيقة لم يكن في الإمكان إيجاد عنوانٍ للموضوع يتصدر الصفحة الأولى من الجريدة أفضل من هذا. ولقد أسررت بذلك إلى صديقي "**هيركيول بوارو**". أنت لا أعرف أي جزء من الأجزاء في الموضوع.. وكانت مصلحتي – بالنظر إلى هذا – نزيهة وفي الوقت نفسه حيادية... وبالإجماع مصلحة رجل الشارع. فما كان من "**بوارو**" إلا أن أبدى موافقته:

– نعم، إن هذا بالنسبة إليك مثل عطر من الشرق، حالة لغزية. وهذه الخزانة قد لا تكون نسخة من القرن الثامن عشر كالتي تراها بطول شارع "**كورت توتنهام**"، إلا أن هذا لا يمنع من اعتبار المراسل الذي منحها اسم خزانة "**بغداد**" ملهماً. وكلمة سر المستخدمة هنا تحمل العديد من المعاني منها كلمة لغز مثلاً، وحسبما فهمت أن كلمة السر هنا لا توحي كثيراً ولا تعبِّر عن مضمون الموضوع.

– بالضبط؛ إذ إنه من البداية إلى النهاية فظيع، بشع بقدر ما هو محزن، وليس سرًّا ولا لغزًا ولا لحظة واحدة. هكذا كرر "**بوارو**" وهو يفكر. قلت وأنا أمسح السجادة (أو الأرض) في كل الاتجاهات:

– الفكرة ذاتها مثيرة: السفاح يقتل الرجل – وهو أحد أصدقائه... ويخفيه في

الخزانة التي تزين صالونه و.. بعد نصف ساعة، تلتقي به وهو يرقص في الصالون نفسه مع زوجة ضحيته، لا، بل لو أنك انتبهت قليلاً أو فكرت فيما لو كنت تخيلت لحظة واحدة...

– إنها حقيقة، هكذا تمتم "**بوارو**" ساهمًا. واصلت وأنا أشعر بقشعريرة خفيفة.

– على ما يبدو أن السهرة انقطعت في مرح. وطوال هذا الوقت، بينما هما يرقصان ويلعبان الميسر، كانت معهم في الحجرة جثة. كان في الإمكان تكوين مسرحية من موضوع مثل هذا. حينئذ قاطعني "**بوارو**":

– لقد تم هذا، لكن ليتك تطمئن يا "**هاستنجز**"، ليس لأن نظرية أو فكرة سبق استخدامها مائة مرة لا ينبغي استخدامها مرة أخرى. كنت في هذه الأثناء قد تناولت الجريدة مرة أخرى، وكنت أفحص الصورة الرديئة عنا كليشه (أي نسخة فوتوغرافية). وجاء تعليقي:

– لابد أنها كانت سيدة جميلة جدًّا. حتى بدءًا من هذا من الممكن تكوين فكرة وكان تحت الصورة مسطَّرًا:

"صورة حديثة للسيدة "**كلايتون**" زوجة القتيل". أخذ "**بوارو**" الجريدة من يدي وقال مؤيداً:

– نعم، إنها جميلة جدًّا، دون أدنى شك إنها من تلك المخلوقات آلهة الجمال مثل "**فينوس**" اللاتي أتين إلى الأرض بهدف واحد ألا وهو لعنة الجنس القوي. ثم أعاد إليَّ الجريدة وهو يطلق زفيراً:

– حمداً لله؛ لأن طبيعتي ليست بركانية. وهو ما جنبني في الحياة العديد من التعقيدات؛ لذلك سأعترف دوما بفضله عليَّ.

ولا أذكر أننا ناقشنا الموضوع أكثر من ذلك؛ لأن "**بوارو**" لم يكن منسجمًا. كانت كل الأحداث واضحة وكانت تظهر فيها بعض المواقف الغامضة القليلة وقد تظهر المناقشة فيها مزيداً من الأفكار السطحية التافهة.

كان السيد والسيدة "**كلايتون**" وكذلك القائد "**ريتش**" أصدقاء منذ زمن بعيد. وكان في اليوم المشار إليه وهو 15 آذار (مارس) أن آل "**كلايتون**" قد قبلوا دعوة "**ريتش**" لقضاء السهرة عنده؛ غير أنه في حوالي الساعة السابعة والنصف مساء

صارح "**كلايتون**" واحداً من أصدقائه – "**كيرتس**" – أنه طُلب منه السفر إلى "**اسكتلندا**" وأنه ينبغي له أن يسافر في قطار الساعة الثامنة. وقال:

– أمامي بالكاد الوقت اللازم للمرور على هذا الـ "**جاك**" لكي أوضح له الأمر (هكذا واصل "**كلايتون**") و"**مرجريتا**" ستذهب بالتأكيد، إني حقًّا متضايق لذلك، لكن "**جاك**" سيفهم.

كان السيد "**كلايتون**" قد نفذ ما قاله، وكان قد وصل إلى منزل القائد حوالي الساعة الثامنة إلا ثلثًا. وكان هذا الأخير قد خرج، لكن خادمه الذي كان يعرف السيد "**كلايتون**" عرض عليه الدخول وانتظار القائد إلا أنه رفض لضيق وقته، لكنه سيترك له رسالة، وأضاف أنه ينبغي له أن يركب قطاراً بعد قليل.

أدخله الخادم إلى الصالون، وكان القائد قد عاد بعد حوالي خمس دقائق، دون أن يشعر به الخادم، وفتح باب الصالون واستدعى خادمه وطلب منه الخروج لكي يشتري له سجائر. وفور عودة الخادم ومعه السجائر، وجد سيده بمفرده في الصالون، وأدرك بداهة أن السيد "**كلايتون**" انصرف ليلحق بقطاره.

وما هي إلا دقائق وإذا بالضيوف يصلون وكانوا: السيدة "**كلايتون**" والسيد "**كورتيس**" وكذلك أحد السادة وسيدة وهي زوجة السيد "**سبنس**". وكانت السهرة قد انقضت في لعب البوكر والرقص على أنغام الفونغراف. وانصرف المدعوون بعد منتصف الليل بقليل.

وحدث، عندما دخل الخادم في صباح اليوم التالي لإعادة ترتيب المكان، أنه ارتبك عندما شاهد بقعة أمام وتحت قطعة الأثاث التي كان السيد "**ريتش**" يدعوها خزانة "**بغداد**" وكان قد جلبها من الشرق الأوسط. حينئذ – دون أن يطيل التفكير – فتح الخادم الخزانة وكم كان فزعه عندما رأى بداخلها جثة قتيل مطعون في قلبه.

اندفع الخادم إلى الشارع جرياً واستدعى أول شرطي قابله. ثم بعد معاينة الجثة، تم القبض على السيد "**ريتش**". وقام المحامي بالدفاع عن السيد "**ريتش**" بإصرار، مؤكداً أنه لم ير السيد "**كلايتون**" في السهرة التي كان قد دعاه إليها ثم علم من زوجته أنه رحل إلى "**اسكتلندا**".

هكذا كانت الأحداث الواضحة، غير أنها كانت لا تخلو من بعض الغموض، إن الصداقة المتينة والعلاقة الوثيقة بين السيدة "**كلايتون**" والقائد " **ريتش** " كانت تلقي ضوءاً على أمر لا يمكن للغبي قراءته ما بين السطور. ها هو المحرك أي الدافع إلى الجريمة قد ظهر بوضوح.

كنت قد تعلمت من خبرة طويلة ألا أتسرع في الحكم، وفي هذه الجريمة ليس هناك ما يشير إلى ما يُرتكز عليه؛ لأنه من الممكن أن يكون الدافع لها له سبب آخر. كما سبق وذكرت، كان من الممكن أن يقف هذا الحدث عند هذا الحد، لو لم تدعنا الآنسة "**شارتيرتون**" إلى سهرة. توجهنا إليها أنا و"**بوارو**" في الليلة نفسها.

كان "**بوارو**" يعشق هذا النوع من الحفلات، على الرغم من أنه كان يبدي عدم ميله إلى الاجتماعيات ويعلن إلى كل الأصدقاء أنه يميل إلى العُزلة؛ لأنه كان في هذه الدعوات التي يقبلها يجد الشهرة والمديح حتى أنه كان يصل به الأمر إلى العمل على إثارة الخلاف معي بالنسبة إلى هذا الموضوع:

– لكنني يا صديقي لست أنا أنجلو سكسونيًّا. لماذا أقوم بدور المنافقين؟! بلى، بلى، هذا ما تقومون به جميعكم. كلكم بالإجماع: الطيار الذي يقوم برحلة حيوية شاقة، صعبة، بطل التنس... الجميع نظروا إلى أسفل وهم يتمتمون بطريقة غير مسموعة وغير مفهومة، لكن هل يدركون هم أنفسهم؟ ولا لحظة. كانوا سيعجبون به عند شخص آخر، لكن أنا مختلف عن ذلك تماماً. إذاً المغامرة المقصودة قد يعجبون بها عند شخص آخر. جسارة كبيرة وأنا سعدت بأني – دون حرج أو نفاق – رجل عظيم؛ إذ إني أتحلى بالنظام والأسلوب وعلم نفس على نحو لا مثيل له. ثم أردف "**هيركيول بوارو**" :

– لماذا أخجل أو لماذا أتظاهر بذلك أو أدَّعي أني لست سوى شخص غبي؟ قد يكون هذا التصرف دليلاً على عدم الصدق.

– ليس في العالم، وهذا أمر واضح إلا "**هيركيول بوارو**" واحد. هكذا قلت إلا أن ذلك كان لا يخلو من شيء من المكر أو الدهاء.

– حمداً لله أن "**بوارو**" لم يُصدم.

كانت الليدي "**شارتيرتون**" مديرة نشيطة. وكان "**بوارو**" قد استخدم كل

الوسائل لكي يصل إلى قلب "**شارتيرتون**"، التي كفَّت منذ تلك اللحظة عن امتداحه بطريقة شهوانية.

كان مَنْ يواجه "**بوارو**" إبان سهرة أو حفل مسائي يرى مشهداً عظيمًا. كان يشاهد رداءه الكامل الممتاز، وحركة رباط عنقه الرقيقة، وكذلك الفرق الذي يتوسط شعره، ويلاحظ تناسقه، هذا دون أن نغفل عن ذكر شاربه المنسّق بعناية.

كانت الساعة تقارب الحادية عشر والنصف مساءً عندما شقت الليدي "**شارتيرتون**" الجموع فجأة نحونا وعملت على جذب "**بوارو**" إليها واقتياده جانبًا. قالت وهي تلهث:

– أريدك في حجرتي، إنها ملجئي ومأواي. إنك تعرف الطريق يا سيد "**بوارو**" هناك ستجد شخصًا يحتاج إلى مساعدتك وسوف تأتي إلى الغرفة، أعلم ذلك جيداً، كما أنها إحدى صديقاتي الحميمات، إذًا لا تعترض. وبينما كنا نتكلم كانت الليدي "**شارتيرتون**" تتقدمنا في ثانية بارتقائها السلالم بسرعة وفتحت بابًا وهي تقول:

– لقد أحضرته يا عزيزتي "**مرجريتا**"، ها هو، سينفذ كل رغباتك. ستساعد السيدة "**كلايتون**" يا سيد "**بوارو**"، أليس كذلك؟

ثم – معتبرة أن الرد جاء بالموافقة – انسحبت بالهمة نفسها التي تميزها. كانت السيدة وقتئذ جالسة في مقعد ذي مساند بالقرب من النافذة. نهضت لكي تأتي للقائنا. كانت في ملابس حداد واللون الأسود كان يبرز رقة بشرتها، كانت سيدة فريدة في رقتها ومن يراها يعشقها، كما كانت لها مسحة طفولية تزيد من سحرها الذي لا يقاوم. تمتمت:

– الآنسة "**أليس**" لطيفة جداً. إنها هي التي دبرت هذا اللقاء، واعدة إياي بأنك ستساعدني يا سيد "**بوارو**"، وبالتأكيد أنا لا أدري ما إذا كنت ستوافق أم لا، لكني أتعشم أنك سوف توافق وتنفذ هذا المطلب. قالت هذا ومدت له يدها وصافحها "**بوارو**" محتفظًا لحظة ليست بالقليلة بيدها بين يديه وهو يتفرس في وجهها ويفحصه بدقة. كان ينظر إليها بنظرة الطبيب المشهور الذي يوجهها إلى زبون جديد أُدخل إلى مكتبه، أخيراً سألها:

– هل أنت واثقة يا سيدتي بأن في إمكاني مساعدتك؟

– "**أليس**" أجابت بالإيجاب.

– بالتأكيد، لكنني أوجه إليك أنت السؤال. علت وجنتيها حمرة خفيفة، ثم قالت:

– لا أعلم جيداً ما تقصد بكلماتك هذه.

– ماذا تريدين أن أقوم بعمله لك بالتحديد؟ قالت مبدية قلقها:

– أنت... أنت تعلم من أنا؟

– بداهة.

– إذن أنت كفيل باستنتاج ما أطالبك بعمله يا سيد "**بوارو**" وكذلك أنت يا كابتن "**هاستنجز**". شعرت بالافتخار عندما اكتشفت هويتي.

– إن السيد "**ريتش**" لم يقتل زوجي.

– لماذا؟

– أأعتذر عنه لك؟ أبدى "**بوارو**" ابتسامة خفيفة وكرر:

– لقد قلت لماذا؟

– لست واثقة بأني فهمت.

– مع ذلك الأمر في غاية البساطة، الشرطة... المحامون سوف يوجهون إليك كلهم هذا السؤال: "لماذا لم يقتل السيد "**ريتش**" السيد "**كلايتون**"؟".

– تقصد لماذا أنا واثقة بذلك على هذا النحو؟ هذا لأني أعرف السيد "**ريتش**" معرفة جيدة.

– إنك تعرفينه جيداً جداً... كرر "**بوارو**" ببطء. في هذه المرة علت الحُمرة وجنتي السيدة بشدة وأردفت:

– نعم، هذا ما سيفكرون فيه، إني أعلم هذا جيداً.

– بالضبط، إنه هو السؤال الذي سوف يركزون فيه لمعرفة إلى أي مدى تعرفينه. ربما تقولين الصدق وأيضاً ربما ستكذبين؛ إذ إن الكذب يعتبر سلاحاً ممتازاً للمرأة. لكن على السيدة أن تنطق بالحقيقة أمام ثلاثة: أبو عترافها، والحلاق الذي يصفف لها شعرها، ومخبرها الخاص، على شرط أن تكون لها ثقة به، هل تثقين بي يا سيدتي؟

– نعم. ينبغي أن يكون الأمر هكذا.

– إذًا إلى أي مدى أو إلى أية درجة تعرفين السيد "**ريتش**"؟ تفرست فيه لحظة بصمت ثم رفعت وجهها بتحد:

– سأجيب عن سؤالك. لقد أحببت "**جاك**" منذ أول نظرة... كان هذا منذ عامين. وفيما بعد – على ما أعتقد – أحبني هو أيضًا لكنه لم يصارحني قط بذلك. حينئذ صاح "**بوارو**":

– رائع! لقد جعلتني أكتسب – ربع ساعة بإجابتك الواعية هذه. وحاليًّا هل زوجك... كان يشك في مشاعرك؟

– لست أدري. هكذا جاء رد "**مرجريتا**"، لقد بدأت التفكير في هذا الأمر... مؤخرًا، وكان تصرفه معي قد تغير... أو ربما هذه ثمرة ما أتخيله.

– ألم يكن هناك غيرة؟

– لا، لا أعتقد.

– و... أطلب منك العفو يا سيدتي ألف مرة... زوجك ألا تحبينه؟

وإن كانت أغلبية الزوجات تعتقد أن عليها إيضاح حقيقة مشاعرها بالتفصيل، أعتقد قد لا توجد من تجيب عن هذا السؤال بالبساطة التي قامت بها هي.

– لا. اكتفت "**مرجريتا كلايتون**" بهذا الرد.

– رائع، إننا حاليًّا نعرف وضعنا على حقيقته. وبالنسبة إليك يا سيدتي، بينما تؤكدين أن السيد "**ريتش**" لم يقتل زوجك. هل عندك فكرة عن الجاني؟

– لا أعرف شيئًا عن ذلك.

– متى أخبرك زوجك بضرورة توجهه إلى "**اسكتلندا**"؟

– بعد تناول الغداء مباشرة. وعلى الرغم من أنه كان مترددًا إلا أنه كان لابد أن يتوجه إلى هنا. خلاف أو ربما دعوى بخصوص بيع أراضٍ. هكذا كان قد أضاف إليَّ.

– وبعد ذلك؟

– خرج... لكي يتوجه إلى ناديه، كما يخيَّل إليَّ... ولم أره منذ تلك اللحظة.

– والآن. هل كان تصرف السيد "**ريتش**" في أثناء السهرة كما هو كالمعتاد؟

– نعم، أعتقد ذلك.

– ألست متأكدة من ذلك؟ قطبت "**مرجريتا**" حاجبيها:

– ربما كان يبدو... متضايقًا بعض الشيء. وليس مع الآخرين. أظن أني أعرف سبب ذلك، ولابد أنك أنت أيضًا تتوقعه؟ إني واثقة بأن هذا الحرج... أو هذا الشرود كان بعيدًا عند "**إدوارد**". نعم، من المؤكد أنه فوجئ وأبدى دهشته لسفره إلى "**اسكتلندا**".

– هل كان هناك شيء آخر غير عادي خلال هذه السهرة؟ بعد لحظة تفكير أجابت:

– لا، لا شيء.

– هل لاحظتِ الخزانة؟ هزت رأسها وهي ترتجف قليلاً:

– أنا لا أتذكره... ولا إلى شيء يشبه. لقد قضينا أغلب الوقت في لعب البوكر.

– ومن الذي فاز؟

– السيد "**ريتش**"، آل "**سبنس**" كانوا يتفوقون قليلا، لكن في النهاية كان هو الفائز.

– متى انتهت السهرة؟

– حوالي منتصف الليل، أعتقد ذلك. ولقد انصرفنا كلنا معًا.

– آه! بعد ذلك، مكث "**بوارو**" صامتًا للحظة، غارقًا في أفكاره. ثم أردفت السيدة "**كلايتون**":

– كنت أود أن أستطيع أن أفيدك بما هو أكثر من ذلك. على ما يبدو أني لم أوافيك إلا بالقليل.

– عن الحاضر نعم، لكن عن الماضي، ربما ستكونين متكلمة أكثر.

– عن الماضي؟

– نعم، ماضيك. ألم تتخلله بعض الأحداث؟ علت الحمرة وجهها:

– هل تقصد هذا الرجل المفزع الذي أطلق على نفسه رصاصة في الرأس؟

لا أعرف عن ذلك شيئًا يا سيد "**بوارو**". أقسم لك أنه لم يكن لي أي دخل في هذا الأمر.

– لم يكن هذا الموضوع الذي أقصده أو أني فكرت فيه.

– ربما تقصد إذًا هذه المبارزة الفظة؟ لكن الإيطاليين يعشقون المبارزة. لقد كنت بذلك واثقة بأن هذا الصبي لم يقتل. فجاء تعليق "**بوارو**":

– ولابد أن ذلك قد طمأنك كثيراً. حينئذ ألقت إليه نظرة ريب.. نهض وصافحها قائلاً:

– ليست نية المبارزة معك يا سيدتي. لكني سأنفذ طلبك، سأكتشف الحقيقة وأتعشم ألا تكون حاستك قد خانتك أي خدعتك... وأن تكون الحقيقة مريحة لك، بدلاً من أن تكدرك.

كان أول لقاء لنا مع السيد "**كورتيس**"، وكان هذا الرجل في الأربعينيات من عمره ذا شعر أسود داكن وبشرة سمراء. كان يعرف آل "**كلايتون**" منذ فترة ليست بالقليلة، تمامًا مثل السيد "**ريتش**". ولقد أيد ما ورد بالصحافة.

كان "**كلايتون**" قد تناول معه كأسًا في ناديهم، قبل الساعة السابعة والنصف. وكان "**كلايتون**" – قبل أن يغادره – قد أعلن له أنه ينوي المرور على السيد "**ريتش**" وهو في طريقه إلى المحطة.

– كيف كان السيد "**كلايتون**"؟ هل كان يبدو مستسلمًا للأفكار السوداء أم أنه كان يتمتع بمزاج حسن؟ فكَّر "**كورتيس**" قليلاً قبل أن يجيب:

– لقد بدا لي في حالة مزاجية معتدلة جدًّا.

– ألم يصارحك بشيء عن الحقد والخلاف المحتمل حدوثه مع السيد "**ريتش**"؟

– يا إلهي، لا، لقد كانا كإصبعي اليد الواحدة.

– ألم يذكر شيئًا يقوله عن... عن صلة الصداقة بين زوجته وبين السيد "**ريتش**"؟ عبس وجهه، ثم قال:

– إنك متأثر بأكاذيب الصحف. بالتأكيد لا.. كل ما قاله لي: " "**مرجريتا**" ستذهب إلى الحفل بالتأكيد".

– وهل كان السيد "**ريتش**" محتفظًا بالوضع نفسه الذي كان عليه طوال السهرة؟

– لم ألاحظ أي فرق.

– والسيدة؟ هل كانت كما هي في المعتاد؟

– لقد كانت صامتة بعض الشيء وشاردة.

– من الذي وصل أولا؟

– عندما وصلت وجدت آل "**سبنس**". وكنت في الحقيقة قد توجهت إلى زوجة "**كلايتون**" لكي أصطحبها معي فوجدتها قد انصرفت وبذلك كنت أنا الأخير.

– وكيف قضيتم السهرة؟ هل رقصتم ولعبتم الورق؟

– قليلاً من الاثنين، لكننا رقصنا في البداية.

– أكان عددكم خمسة؟

– نعم، لكن لم يكن في ذلك أية مشكلة؛ لأنني لا أرقص. لقد وضعت الأسطوانات والآخرون رقصوا.

– من الذي رقص ومع من؟

– في الحقيقة آل "**سبنس**" يحبون أن يرقصوا معًا، إنهم بالإجماع على ما يبدو لا يميلون إلى التآلف.

– بذلك السيدة "**كلايتون**" لم ترقص وطوال الوقت إلا مع السيد "**ريتش**"؟

– بداهة، نعم.

– وبعد ذلك لعبتم البوكر؟

– نعم.

– ومتى انصرفت؟

– بعد منتصف الليل بقليل.

– هل انصرفتم كلكم معًا؟

– نعم، لقد اشتركنا كلنا في سيارة أجرة، بدأ السائق أولاً بتوصيل السيدة "**كلايتون**"، ثم أنا، وآل "**سبنس**" ظلوا فيها إلى "**كينجستون**".

وكانت الزيارة الثانية للسيد والسيدة "**سبنس**". كانت السيدة "**سبنس**" هي الموجودة فقط. وما أدلت به أكد أقوال السيد "**كورتيس**" ثم أضافت بعض التعليقات على اللعب.

كان "**بوارو**" في الصباح الباكر قد اتصل هاتفيًا بـ"**سكوتلانديارد**" وطلب التحدث مع سيادة المفتش "**جاب**" . ولقد أفدنا به من ذلك عند وصولنا إلى مسكن السيد "**ريتش**" ، استقبلنا خادمه "**بيرجوين**" الذي كان في انتظارنا. وكان ما أعلنه هذا الخادم واضحًا ومحددًا. قال:

– في الساعة الثامنة إلا ثلثًا وصل السيد "**كلايتون**" معلنًا أنه لابد له من ركوب القطار للضرورة وأنه لا يستطيع الانتظار لكنه سيترك رسالة ، الأمر الذي جعله يدخل إلى الصالون ولم يسمع الخادم "**بيرجون**" سيده عندما دخل، وهو موقف لا يدعو إلى الدهشة؛ لأن السيد كان معه مفتاحه. بحسب رأيه، كان ذلك، بعد مرور عشر دقائق منذ أن كان سيده قد استدعاه وطلب منه أن يحضر له سجائر. لا، لم يدخل هو ذاته إلى الصالون في تلك اللحظة؛ لأن سيده كان قد وافاه بما يريده وهو على عتبة باب الحجرة، وعندما عاد بعد خمس دقائق ومعه السجائر دخل إلى الصالون ووجد سيده بمفرده جالسًا أمام النافذة وكان يدخن. كان هذا الأخير قد سأله عما إذا كان حمّامه معدًّا. كان الآخر قد أجابه بنعم، فتوجه ليستحم. بالنسبة إلى "**بريجون**" لم ير السيد "**كلايتون**" ظنًّا منه أن سيده كان قد وجده في مكانه واصطحبه بنفسه مودعًا إياه حتى الباب. لقد كان تصرف سيده مطابقًا للذي يعرفه عنه في المعتاد.

بعد أن انتهى من الاستحمام وتبديل ملابسه، كان السيد والسيدة "**سبنس**" قد وصلا ثم تبعتهما بعد قليل السيدة "**كلايتون**" وأخيرًا السيد "**كورتيس**" . لم يخطر لحظة إلى ذهن "**بورجوني**" - كقوله - إن السيد "**كلايتون**" قد انصرف قبل عودة سيده. بالنسبة إلى مثل هذا الوضع كان ينبغي للسيد "**كلايتون**" أن يصدر صوتًا وهو يغلق الباب وبالتأكيد كان الخادم سيسمعه.

وهكذا واصل الخادم حديثه، إلى أن ذكر عثوره على الجثة. ولأول مرة اتجهت بذهني إلى الخزانة المشؤومة. هذه الخزانة كانت قطعة أثاث، وُضعت بجوار الحائط بجوار الفونغراف وصندوق الأسطوانات. كانت هذه الخزانة مصنوعة من خشب لامع وبلون داكن جدًا، عليها عدد كبير من المسامير النحاسية. كانت تفتح بسهولة، نظرت إلى الداخل فاقشعر بدني. فجأة صرخ "**بوارو**" :

– ما هذه الثقوب؟ إنها غريبة جداً!

كانت الثقوب التي يقصدها موجودة على الجانب الخلفي لهذه الخزانة، المواجهة للحائط. كانت هذه الثقوب الثلاثة أو الأربعة بقطر سنتيمتر وكان واضحاً تماماً أنها ثُقبت حديثا. مال "**بوارو**" لكي يفحصها أكثر من قُرب، ثم ألقى إلى الخادم نظرة استجوابية. فأجاب هذا الأخير:

– إنه في الواقع يا سيدي أمر مثير للدهشة. ولا أتذكر أنني قد سبق لي مشاهدتها. أردف "**بوارو**" :

– على أية حال، إنه أمر لا يهم. ثم أغلق الخزانة وتراجع إلى أن وصل إلى النافذة واستند إليها. ثم فجأة وجه سؤالاً.

– أخبرني. عندما أحضرت السجائر إلى سيدك، هل كان في الحجرة شيء ليس في مكانه؟ تردد "**بيرجوني**" لحظة ثم أجاب:

– إني أجد غرابة في توجيه هذا السؤال. والآن يجب عليَّ أن أجيب عنه. نعم، لقد لاحظت أحد التفاصيل. كان هذا (البرافان) الذي يحمي الحجرة من تيارات الهواء... منقولاً من مكانه إلى اليسار قليلاً.

– هكذا؟

كان "**بوارو**" قد دخل إلى الصالون ووضع (البرافان) جانباً. وكان هذا (البرافان) الجميل من النحاس. أردف الخادم مؤكداً:

– بالضبط هكذا. كان وضع (البرافان) هكذا.

– وفي صباح اليوم التالي؟

– كان في المكان نفسه. أتذكر ذلك جيداً. ولقد اكتشفت البقعة عندما أعدته إلى مكانه. السجادة في المغسلة يا سيدي؛ لذلك الأرضية مكشوفة. حكَّ "**بوارو**" رأسه:

– مفهوم. شكراً لك. قال هذا ووضع في يد الخادم ورقة مالية.

– آه! شكراً يا سيدي. عندما تواجدنا معاً في الشارع سألت:

– هل يا "**بوارو**" هذه المعلومة تعتبر نقطة في صالح "**ريتش**" ؟

– بالعكس، إنها تدينه أكثر. هكذا أجاب "**بوارو**" . كان هذا (البرافان) يخفي

الخزانة عن الموجودين في الحجرة، كما كان يخفي عنهم كذلك البقعة التي على السجادة. وآجلاً أو عاجلاً سيتسرب الدم من الخشب ويلوث السجادة.. في بدء الأمر سيعمل (البرافان) على تجنب الاكتشاف. نعم... لكن هناك أمر لا أفهمه. الخادم يا "**هاستنجز**" الخادم.

– الخادم؟ لقد بدا لي في غاية الذكاء.

– كما تقول إنه ذكي جدًا. هل من المعقول أن السيد "**ريتش**" لم يفكر لحظة واحدة في أن خادمه سيكتشف حتمًا الجثة في صباح اليوم التالي؟ فور إتمام جريمته، أخفى الجثة في الخزانة وزحزح (البرافان) عن مكان ليحجب كل شيء ويقدم تضرعات وتمنيات حتى تتم السهرة دون أية عقبة، لكنه فور انصراف مدعويه لم يجد الوقت الكافي لكي يتخلص من الجثة.

– ربما كان يتوقع أن خادمه لن يلمح البقعة؟

– لا يا صديقي، هذا غباء، سجادة ملطخة بالدم هي أول شيء يلمحه الخادم. ومع ذلك ماذا أفعل للسيد "**ريتش**"؟ يرقد في فراشه وينام ملء جفنيه. هذا ما هو مثير جدًا ويدعو إلى البحث. قلت:

– أما كان من الممكن أن يرى "**كورتيس**" بقعة الدم عندما كان يبدل الأسطوانات؟

– إن احتمال ذلك صعب؛ حيث إن ظل (البرافان) كثيف ولكنني بدأت أعرف بوضوح.

وكانت زيارتنا التالية للطبيب الذي كان قد فحص الجثة. ولقد جاءت شهادته مطابقة لما كان قد أعلنه عند بداية التحقيق. وهو أن المتوفى طُعن في قلبه بسلاح طويل ورفيع، وهو نوع من الخناجر. وكانت هذه الآلة المستخدمة باقية في الجرح. كانت الوفاة قد تمت فورًا في لحظة الطعن نفسها. وكان الخنجر ملكًا للسيد "**ريتش**" وكان يُرى دائمًا على مكتبه. ووفقًا لما أدركه الطبيب كان خاليًا من أية بصمة أي أنه لابد أن يكون قد تم إمساكه بمنديل. كانت الجريمة قد حدثت فيما بين السابعة والتاسعة. استفسر أيضًا "**بوارو**" :

– ألم يكن من المحتمل أن الجريمة قد تمت بعد منتصف الليل؟

– لا، وبالنسبة إلى ذلك فأنا واثق، أقصاها في العاشرة مساءً... لكن ما يبدو لي أكثر احتمالاً هو ما بين السابعة والنصف والثامنة. ثم صارحني "**بوارو**" بالآتي في أثناء عودتنا إلى المنزل.

– هناك فرض محتمل. إني لأتساءل يا "**هاستنجز**"، ليتك تراه أنت أيضًا. بالنسبة إليَّ أصبح الموقف مفهومًا ولا ينقصني سوى تفصيل واحد لإلقاء الضوء على الموضوع. فقلت:

– صدقني. فيما يخصني أنا لا أرى شيئًا بالمرة.

– ابذل جهدًا ولو قليلاً.

– حسنًا، اسمع. في الساعة الثامنة إلا الثلث كان بكامل صحته مثلي ومثلك. وآخر من رآه حيًّا كان السيد "**ريتش**".

– على الأقل هذا ما نتوقعه.

– ألم يكن ممكنًا أن تكون هذه هي الحالة؟

– هل غفلت يا صديقي عن أن السيد "**ريتش**" نفى ذلك؟ ولم يأت على ذكر أن "**كلايتون**" كان قد انصرف عندما عاد هو ذاته.

– لكن الخادم يؤكد أنه كان سيسمع صوت الباب عند خروج "**كلايتون**". وإذا كان "**كلايتون**" قد خرج فمتى عاد؟ لم يكن ممكنًا قط. تكون عودته بعد منتصف الليل؛ لأن الطبيب يؤكد أنه مات على الأقل قبل ذلك بساعتين. الأمر الذي يترك لنا احتمالاً واحدًا.

– نعم، يا صديقي العزيز؟ هكذا قال "**بوارو**".

– معرفة أنه في أثناء الدقائق الخمس التي قضاها "**كلايتون**" في الصالون أحدهم دخل لقتله.. غير إننا هنا نتوقف أمام الاحتمال نفسه. الذي يحمل مفتاحا هو وحده الذي يمكنه أن يدخل إلى المسكن دون أن يسمعه الخادم دائمًا مع التفكير وكذلك السفاح وهو خارج، قد يغلق الباب بشدة، ليس من الممكن ألا يسمعه الخادم.

– بالضبط، أردف "**بوارو**" مؤيدًا. وبالتالي...

– وبالتالي... لا شيء. هكذا تمتمت. أنا لا أرى حلاً آخر.

– وا أسفاه! خسارة. تظاهر "**بوارو**" بأنه أشفق علي؛ إذ إنه في الحقيقة في غاية البساطة... وفي صفاء ووضوح عيني السيدة "**كلايتون**" الزرقاوين.

– أتعتقد حقًا أن...

– أنا لا أعتقد شيئًا ولا أصدق شيئًا ما لم يكن عندي دليل عليه. إلا أني سوف أقتنع بالأكثر فظاعة. ثم رفع سماعة التليفون وطلب المفتش "**جاب**" في "**سكوتلانديارد**". بعد عشرين دقيقة كان أمامنا على المائدة كمٌّ صغير من أشياء مختلفة: كل ما كان في جيب الميت.

كان عبارة عن منديل، وحفنة من النقود الفكّة الصغيرة، ومحفظة بها ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات وصورة لـ"**مرجريتا كلايتون**". كان يوجد كذلك مطواة وقلم حبر بسن ذهب ومقبض من الخشب مربك له النظام. وقد اهتم "**بوارو**" بهذا الأخير وعندما فكّه خرج منه عدة أسلحة لأدوات...

– انظر يا "**هاستنجز**"، بريمة وكل ما تشاء، آه! هذا ما يساعد حتمًا على إتمام الثقوب في خشب الخزانة.

– تلك الثقوب التي رأيناها؟

– بالضبط.

– بذلك تريد أن تقول إنه "**كلايتون**" هو الذي نفذ هذه الثقوب؟

– نعم يا صديقي نعم. ما الذي أوحت إليك به هذه الثقوب؟ إنها لم تعُمل لكي يُشاهد ما خلفها؛ لأنها في ظهر الخزانة ملاصقة للحائط. إذن فيم كانت تفيد؟ هل لكي يُسمح للهواء بالدخول إلى الخزانة؟ لكن ليس من يهتم بإدخال هواء إلى جثة، إذًا ليس السفاح هو الذي عملها.. إنها توحي بشيء واحد ألا وهو أن شخصًا ما كان سيختفي في هذه الخزانة. إذًا استنادًا إلى هذه النظرية كل شيء أصبح واضحًا. كان السيد "**كلايتون**" يغار من المشاعر الوجدانية التي تربط زوجته بالسيد "**ريتش**". فما كان منه إلا أنه ادّعى بأنه مطلوب في الخارج، عندما رأى "**ريتش**" يخرج دخل إلى الصالون لتحرير رسالة كقوله وانتهز فرصة وجوده بمفرده وعمل هذه الثقوب، ثم جلس في الخزانة مثل زوجة سترحل في هذا المساء. ربما أن "**ريتش**" سوف يتخلص من مدعويه الآخرين وربما ستمكث بعد انصراف الآخرين،

هذا إلا إذا تظاهرت بأنها تخرج معهم ثم تعود بعد ذلك، ومهما حدث، سيتحقق "**كلايتون**" من كل شيء، أفضل من أن يبقى ملتاعًا من الشكوك.

– إذًا حسب اعتقادك "**ريتش**" هو الذي قتله بعد انصراف الآخرين؟ لكن الطبيب قال وكرر أن هذا مستحيل.

– أرى جيداً يا "**هاستنجز**"؛ لذلك قد تم القتل في أثناء السهرة.

– لكن الكل كانوا في الحجرة.

– بالتأكيد. أردف "**بوارو**" :

– أترى جمال الأمر؟ الجميع في الحجرة. يا له من رباط جأش، ويا لها من جرأة، ويا لها من صلابة!

– مازلت أؤكد أني لا أفهم شيئًا.

– من الذي وقف خلف هذا (البرافان) لوضع الأسطوانات وتبديلها؟ لقد كانت الخزانة والفونغراف الواحد بجوار الاخر، تذكر ذلك. الآخرون يرقصون... والموسيقى تصدر عن الفونغراف. إذًا الرجل الذي لا يرقص يكشف غطاء الخزانة وبالسلاح الذي وضعه في هذا المقبض العملاق أدخله في هذا التعيس المختبئ في الخزانة.

– مستحيل؛ لأن هذا الشخص كان سيصرخ.

– ليس إن لم يكن قد تم تخديره قبل ذلك.

– تخديره؟!

– نعم، مع من "**كلايتون**" كان قد تناول كأسًا في السابعة والنصف؟ هيًا افتح عينيك. إن "**كورتيس**" هو الذي غرس في ذهنه سُم الشك في "**ريتش**" نحو زوجته. إنه "**كورتيس**" الذي اقترح الخطة بالتظاهر بالسفر إلى "**اسكتلندا**" وأن يختفي في الخزانة بعد زحزحة (البرافان). إذن هذه الخطة كانت بإيحاء من "**كورتيس**"، ولإجمال الأمر يا "**هاستنجز**" : إذا كان "**ريتش**" قد لمح نقل (البرافان) من مكانه وأعاده إلى مكانه المعتاد... لم تكن هناك مشكلة في ذلك. وها هو "**كلايتون**" يختبئ في الخزانة والمخدَّر الذي وضعه له "**كورتيس**" بدأ يقوم

بعمله ببطء وإذا به بعد قليل يفقد وعيه. "**كورتيس**" يرجع غطاء الخزانة ثم يطعنه بينما الفونغراف مستمر في إصدار الموسيقى. ثم خفضت صوتي:

– لماذا؟ إذاً لماذا؟ فهز "**بوارو**" كتفيه وهو يقول:

– لماذا أطلق أحدهم رصاصة على نفسه في الرأس بالتحديد؟ ولماذا تبارز الإيطاليان؟ كان "**كورتيس**" بطبيعته شهوانيًّا. كان يريد "**مرجريتا كلايتون**". بعد التخلص من زوجها والحكم على السيد "**ريتش**" باعتباره الجاني سوف يحدث أنها – أو على الأقل كان اعتقاده – سوف تتجه إليه (وأضاف حالماً) إن تلك السيدات اللاتي يظهرن بمظهر القديسات يُعتبرن خطراً على المجتمع، لكن ياالله القدير! بالنسبة إلى جريمة القتل يا له من مظهر فني، يا له من عمل بارز! إن قلبي لا ينقبض بقدر ما ينقبض إزاء فكرة إرسال رجل مثل هذا إلى المشنقة! وإن كنت أنا ذاتي موهوبًا ونابغة إلا أني لا ألبث أن أخشى كل الموهوبين الآخرين، أولئك النوابغ. جريمة متقنة، يا صديقي، أنا "**هيركيول بوارو**" الذي يقول لك إنما هي جريمة ممتازة. شيء رائع!

*****

طالما يضيء النهار

شخصيات الرواية:
- "**جورج كروزييه**" : ثري صاحب مزارع للتبغ في "**إفريقيا**" .
- السيدة "**ديردر**" : زوجة السيد "**جورج**" .
- "**تيم نيجنت**" : كان صديقًا لـ"**ديردر**" قبل زواجها.

كانت السيارة "**الفورد**" تتقدم من أخدود إلى أخدود تحت شمس "**إفريقيا**" الحارقة في طريق على جانبيه مجموعة الأشجار والنباتات ذات اللون الأخضر المتدرج إلى اللون الأصفر يمتد إلى مدى الرؤية موحية بسكون الطبيعة. وعدد قليل جدًّا من العصافير كان يزعج بتغريده صمت هذا العالم الصامت. وفي لحظة اخترق ثعبان المدق، مارًّا بمرونة وليونة من تحت عجلات العربة. ثم بعد ذلك بقليل، خرج من الدغل ثعبان بلدي مستقيم تحت حراسة سيدة تحمل طفلاً على ظهرها وعلى رأسها كل حاجاتها بما فيها فرن الشي.

لم يغفل "**جورج كروزييه**" عن موافاة زوجته بكل ذلك والتي كانت تجيبه بكلمات متقطعة مظهرة عدم الاهتمام وعدم الانتباه الكافي. الأمر الذي كان يثيره.

"دائمًا تفكر في هذا الشخص" . هكذا كان يعلق ثائرًا. هكذا كان يعبّر عن هذا الـ"**تيم نيجنت**" . كان قد قتل إبان الحرب العالمية الكبرى، قتل في أثناء الحملة ضد الألمان الذين كانوا يحتلون جنوب غرب "**إفريقيا**" . حقًّا إنه أمر طبيعي ما تقوم به... اختلس نظرة إلى بياض بشرتها ونعومة وجنتيها، أطال النظر إلى استدارة قوامها، وقد بدت أكثر حيوية مما كانت عليه يوم أن صرحت له بإعلان خطبتهما ثم الزواج بهذا الشاب الجميل ذي البشرة البرنزية المدعو "**تيم نيجنت**" الذي كانت مفتونة به.

أخيراً وباختصار هذا الشاب مات... مات في ساحة الشرف و... وهو "**جورج كروزييه**" تزوج بالفتاة التي كم تمنى أن يتزوجها وكانت هي أيضًا تحبه. وكيف يتصرف حينئذ وقد كان مستعداً لإرضاء أبسط رغباتها وكل ما يمتلك الثروة التي عنده. عاد بتفكيره إلى آخر هدية كان قد قدمها إليها. تلك الألماسة النادرة وكل السيدات سواسية في المشاعر، عندما يختص الأمر بالألماس إلا أن الضرورة ألزمت "**جورج**" بالعودة إلى عالم الواقع.

– إلهي، يا له من طريق! كانت هذه هي المرة الخامسة والعشرون وبالتأكيد بلهجة تعبر عن الضيق والضجر... ومواصلا قال:

– وأين توجد زراعة التبغ المقصودة؟ لقد غادرنا "**بولايو**" منذ أكثر من ساعة. قالت "**ديردر**" بنبرة هادئة:

– في أحد الأماكن عند نهاية الـ"**رودس**".

لكن السائق ذا البشرة التي بلون البن المكلف بإعطاء التعليمات شرع في اتباع الطريق الذي سيؤدي إلى مقرهم بعد اتخاذهم الدوران المقبل للمدق.

كان المشرف على مزارع السيد "**والترز**" في الانتظار تحت الشرفة واستقبلهم بكل علامات الاحترام الذي يفرضه وجود "**جورج كروزييه**" في قلب "**اليونيون توباكو**" وقدم إليهم كنَّته التي – بعد اختراق صالة معتمة ورحبة – قادت "**ديردر**" إلى حجرة تستطيع فيها رفع الوشاح الذي تضعه دائماً لحماية بشرتها كلما ركبت سيارة. وفي أثناء ما كانت تفك دبابيسها برشاقتها المعروفة، لمحت عيناها قُبح هذه الحجرة العارية المطلية بالجير. لا مكان هنا للترف و"**ديردر**" التي تميل إلى الرفاهية اقشعرت قليلاً. وعلى الحائط كُتب نَصٌّ أزعجها: "بم يفيد أن يربح الإنسان العالم ويفقد نفسه؟"... لكنها رأت أن الموضوع لا يهمها و... واصلت اتباع قائدتها الخجلة التي لا تميل بطبيعتها إلى الحديث. لاحظت ما يبرزه رداء هذه السيدة، في ردائها الأبيض المجلوب من "**باريس**" بلد الملابس الفاخرة التي عندما كانت ترتديها تظهر عليها كل علامات السرور الذي تتميز به الفتاة. كان الرجلان في انتظارها:

– ألا يضايقك يا سيدة "**كروزييه**" القيام معنا بجولة في المبنى؟

– لا، لا بتاتا، أنا لم يسبق لي قبل ذلك زيارة مصنع للتبغ. وخرجوا جميعًا

للتجول في فترة ما بعد الظهر في حر "**رودس**".

– أمامك هنا الشتلات؟ إننا نعيد غرس جزء منها حسب الطلب. ما ترين هنا...

كان صوت المشرف على الزراعة يأتي بطريقة رتيبة ومتوالية لا تقاطعه سوى أسئلة زوجها: المحصول، الضرائب المحلية المفروضة، المشاكل المرتبطة بعمل الشعوب الأخرى. حينئذ كفَّت عن الإصغاء.

هكذا كانت "**رودس**" هذا البلد الذي كان يعشقه "**تيم**" والذي كان على كليهما أن يستعدا لقضاء حياتهما فيه بعد انتهاء الحرب. آه لو لم يكن تم قتله! وكالمعتاد كانت تعاني الحقد وعدم الرضا كلما لاحقتها هذه الفكرة... شهران فقط، كانت هذه فقط الفترة التي كان لهما الحق فيها. شهران من السعادة... لا شك في أنها قضت أياماً في سعادة وفي غمرة الحب، لكن ألم يخطر على بالها قط أن القدر يخبئ لها هذا المصير الذي تحياه الآن؟ وللمرة الأولى تقبلته... وهي تردد... ربما كل الأشياء تعمل معا للخير. أي للأفضل!!

– لولا أن "**جورج**" يحبني ويبدي كرمه الشديد نحوي ما أحببت الحياة هنا، أو ما لا شك فيه عاجزة عن إسعاده؛ إذ ببساطة يكفي النظر إلى الألماسة التي أهدانيها.

وكانت بمجرد التفكير في ذلك تتثاقل جفونها تحت تأثير الشعور بالمتعة والرضا.

– هنا سنباشر...

كان "**والترز**" يتقدمهم داخل هنجر منخفض. كانت أكوام ضخمة من أوراق الشجر الخضراء تغطي الأرض. بعض الصبية السُّمر (الزنوج) في ملابس بيضاء يجلسون القُرفُصاء، يعملون على فرزها ويضعونها على أكوام، حسب المقاسات ثم يلضمونها في خيوط بإبر بُدائية. كانوا يقومون بهذا العمل بكل سرور ويداعب الواحد منهم الآخر كاشفين عن أسنانهم البيضاء كلما ضحكوا.

– الآن، خارجاً...

غادروا الهنجر بعد ذلك، وخرجوا في الهواء الطلق حيث كانت الحبال المليئة بالأوراق مدلاة لكي تجف تحت الشمس.

ثم أدخلهم "**والترز**" في سلسلة من الهناجر حيث التبغ العديم اللون قد تحول إلى

اللون الأصفر لتعرضه لأشعة الشمس. وكلما تقدموا كان الظلام يزداد. كانت رؤوسهم التي تغطيها هذه الكتل ذات اللون الضارب إلى البني وعلى الرغم من ذلك تتأثر بتيارات الهواء، كما كانت الرائحة قوية أيضًا تكاد أن تكون خانقة. هكذا بدا لـ"**ديردر**" التي فجأة اعتراها خوف لا تعرف سببه، جعلها تسارع بالخروج من هذا الظلام ومن هذا الجو الخانق؛ لكي تجد نفسها في ضوء النهار، حينئذ شاهد "**كروزييه**" شحوبها:

– ماذا بك يا عزيزتي؟ هل كنت تشعرين بأنك متعبة؟ لا شك في أنها الشمس. كان من الأفضل لك ألا تتبعينا في أثناء تفقد ومتابعة الزراعة، أليس كذلك؟

اقترح "**والترز**" أن تعود السيدة "**كروزييه**" إلى المنزل لكي تستريح. ثم نادى شخصًا كان يقف على مقربة منهما وقام أولاً بتقديمه.

– السيد "**آردين**"... السيدة "**كروزييه**"، السيدة "**كروزييه**" متوعكة قليلاً من تأثير الحرارة يا سيد "**آردين**". ليتك تتكرم وتصطحبها إلى المنزل. سارت "**ديردر**" بجوار "**آردين**". وكانت بعد فترة قد تمالكت نفسها وألقت إليه نظرة.

– "**ديردر**"! خفق قلبها بشدة، ثم توقف عن الخفقان. لم يسبق لأحد قط أن نطق باسمها بمثل هذه الرقة. حولت رأسها لكي تراه جيداً. كانت الشمس قد لوّحته حتى أنه كاد يبدو زنجيًا. وكان على الوجنة التي تمكنت من مشاهدتها أثر جرح، ومع كل لقد عرفته:

– "**تيم**"!

ثم – خلال دهر – هكذا بدا لهما الوقت – أطالا النظر الواحد إلى الآخر، صامتين ومرتجفين، ثم دون أن يعرفا لماذا ولا كيف تواجدا الواحد بين ذراعي الآخر: متعانقين. كان الوقت بالنسبة إليهما قد مر بسرعة. ثم بعد أن انتصبا، نطقت "**ديردر**" بالآتي:

– إذًا، أنت لم تمت؟

– لا، لا شك في أنهم أخذوا جثة شخص آخر على أنها جثتي. أنا لم أمت، أنا كنت فقط مصابًا في رأسي. وبعد أن عدت إلى صوابي، كنت قد نجحت في

الزحف إلى الدغل. ومن بعد لم أدر ما حولي خلال شهور وشهور، ولو لم تعتن بي قبيلة صديقة ما كنت قد عدت إلى صوابي وتمكنت من العودة إلى حضارتي.. (عيَّن زمنا): وهناك اكتشفت أنكِ تزوجتِ منذ ستة أشهر.

– آه! حاول يا "**تيم**" أن تفهم أرجوك، حاول أن تفهم. ثم انتحبت. نعم كم كانت مفزعة هذه الوحدة... وهذا الفقر. لكن كان لا يهم إذا كانت حياة الفقر معك أنت. لكن عندما وجدت نفسي وحيدة، عاجزة عن مواجهة الحياة...

– بالتأكيد "**ديردر**"... أنا أدرك ذلك تمامًا أعلم جيداً أنك كنت تحبين حياة الترف والرفاهية. كنت قد انتزعتك من هذه المرارة ذات مرة... لكن في المرة الثانية... كيف أُعبِّر؟ كنت قد فقدت أعصابي... وكما ترين أصبحت بالكاد قادراً على السير دون عكازين، هذا بالإضافة إلى هذه العلامة. قاطعته متحمسة:

– أتعتقد أنني كنت سأهتم أو أتأثر بذلك؟

– لا، إني واثق بأنك في مثل هذا الوضع كنت ستواصلين معي... لكنني تصرفت بغباء. هل تعلمين أني وضعت في ذهني أن أترقبك؟ ولو أني رأيتك تسعدين مع "**كروزييه**" لظللت ميتًا. ولقد رأيتك. كنت وقتئذ تصعدين إلى سيارة ضخمة، كنت متشحة بفراء "**زبلين**" وُجدت في وضع لو تفانيت في العمل ما كنت تمكنت من تحقيقه لك، وجدت أنك مشرقة. وأنا كنت حينئذ قد فقدت ما عهدته فيَّ من شجاعة وإيمان قبل الحرب. كل ما كنت قادراً على مشاهدته كان عجزي التام عن الكسب... في حين أني رأيتك في وضع يشير إلى السعادة.. كنت يا "**ديردر**" تظهرين أمامي كملكة وسط حاشيتها.. فعلاً كنت تستحقين ما قدمه إليك "**كروزييه**" لكي تتحلين بما قدمه إليك من ثراء فاخر ومجوهرات ثمينة... نعم عندما رأيتك على هذا النحو تألمت ولعنت الحظ الذي قدَّر لي كل ذلك. فاعتبرت نفسي ميتا وسأظل هكذا....

– الألم! هكذا كررت "**ديردر**" بصوت خافت:

– نعم، بربي، لقد تألمت يا "**ديردر**".

– الألم! كررت "**ديردر**" بصوت منخفض.

– نعم يا "**ديردر**" لقد آلمني هذا الموضوع، أنا لست أذمك، أنا لا ألومك في شيء لكنني تألمت. ثم صمت كلاهما للحظة.. ثم رفع "**تيم**" ذقنها ووجهها إلى وجهه وأمطرها بالقبلات في حنان جديد:

– لكن يا عزيزتي لقد أصبح كل ذلك ماضياً. يبقى أمامنا شيء واحد وهو كيف سنعلن ذلك لـ"**كروزييه**".

– آه! وكانت قد ابتعدت عنه فجأة:

– لم أفكر... اضطرت إلى التوقف عن الكلام عند ظهور "**كروزييه**" ولمحهما عند دوران الفريق. و.. حوّلت رأسها بسرعة وهمست:

– لا تقم بتنفيذ شيء في الحال. سأتحمل أنا المسؤولية في هذا الموضوع.. لأنني لابد لي من الاستعداد له أولاً. أين أقابلك غداً؟ بعد لحظة تفكير أجابها "**تيم نيجنت**":

– في إمكاني التوجه إلى "**بولا يو**". ما رأيك في مقهى بجوار "**ستاندار بانك**"؟ في تمام الساعة الثالثة من بعد الظهر.

أشارت إليه "**ديردر**" بالموافقة قبل أن تدير له ظهرها لكي تلحق الاثنين الآخرين و"**تيم نيجنت**" – وقد تقطب جبينه – تطلع إليها وهي تبتعد. كان – في تصرفها – شيء ما يربكه.

التزمت "**ديردر**" الصمت خلال رحلة العودة. كانت تفكر في الطريقة التي سيكون عليها أن تتبعها، كيف ستخبره بذلك؟ وماذا ستكون ردة الفعل عنده؟ أحست بملل عجيب يلاحقها، ورغبة في تأجيل إعلان هذا الأمر إلى ما بعد، إلى أبعد ما يمكن. غداً سيكون كافيا. الوقت لا يكفي قبل الساعة الثالثة من بعد الظهر.

كان الفندق غير مريح. كانت حجرتهما في الطابق الأسفل، وكانت مُطلة على فناء داخلي. قضت "**ديردر**" ليلتها في استنشاق الهواء وفي تأمل الأثاث ذي الذوق الرديء. وسرحت بفكرها إلى "**مونكتر كورت**"، هذا المكان الذي كانوا يقضون فيه حياة مستقرة، أخيراً عندما انصرفت، توجهت ببطء إلى صندوق

جواهرها. أمسكت بالألماسة ووضعتها في راحة يدها، فجذبت نظرها. وبحركة تكاد أن تكون عنيفة، أعادتها إلى الصندوق وأغلقت غطاءه بشدة، صباح غد، سوف تحدث "**جورج**".

نامت نوماً مضطرباً، كانت تشعر بالاختناق تحت الناموسية. ثم استيقظت خاملة وشاحبة الوجه. من المستحيل أن تقوم باي عمل في الصباح الباكر! وهكذا قضت الفترة الصباحية في حجرتها الصغيرة المغلقة بإحكام. كانت فترة الإفطار قد حانت. وكانت بالنسبة إليها أشبه بالكارثة.. وفي أثناء ما كانت تتناول القهوة مع "**جورج كروزييه**"، عرض عليها هذا الأخير القيام بجولة بالسيارة إلى "**ماتابو**":

– أمامنا الوقت الكافي إذا رحلنا فوراً.

هزت "**ديردر**" رأسها معلنة إصابتها بصداع نصفي ومحدثة نفسها: "هكذا أنظم الموضوع؛ لأني لا أستطيع تعجيل الأمور. ومع كل، بما يهم إذا كان يوماً أكثر أو أقل؟ سأوصي بذلك "**تيم**"".

لوّحت بيدها إلى "**كروزييه**" علامة الوداع، بينما كان يبتعد بسيارته "**الفورد**" القديمة. ثم بعد إلقاء نظرة سريعة إلى ساعة يدها، توجهت سيراً على قدميها إلى المكان المحدد للمقابلة.

كان المقهى خالياً من الزوار في بداية فترة ما بعد الظهر، جلسا أمام مائدة صغيرة وطلبا الشاي الذي يتناوله الإفريقيون في كل ساعة من النهار والليل. لم ينطق أحدهما بكلمة واحدة، حتى انسحبت الخادمة إلى مقرها خلف الستائر الوردية. وحينئذ تمكن من أن يوجه إليها هذا السؤال:

– "**ديردر**"، هل أخبرته بالوضع؟ هزت رأسها وعملت على تندية شفتيها، وبحثت عن كلمات رفضتها فيما بعد، سألها:

– لماذا؟

– لم أجد الوقت المناسب لذلك. وحتى هي ذاتها كانت غير متقبلة هذه الكلمات التي نطقت بها.

– ليس هذا هو السبب. هناك أمر آخر. لقد ساورني الشك بالأمس. اليوم

أصبحت واثقًا بذلك. ماذا في الأمر يا "**ديردر**"؟ هزت رأسها بصمت.

– هناك سبب يجعلك رافضة ترك "**كروزييه**" والعودة إليَّ. ما هذا السبب؟

وكان هذا صحيحًا. عندما سمعته ينطق بذلك، فهمته، وشعرت بخجل شديد، لكن مع عدم استبعاد وجود شك. وفي هذه الأثناء كانت عينا "**تيم**" تتفرسان فيها محاولاً أن يسبر أعماقها:

– ليس لأنك تحبينه. إنك لا تشعرين نحوه بأية عاطفة. غير أنه مع ذلك، هناك شيء آخر. "بعد ثوانٍ، سيكتشفه". هكذا حدثت "**ديردر**" نفسها، يا إلهي ليتك تمنعه من القيام بذلك. فجأة شحب وجهه. وصاح:

– "**ديردر**"... هل لأن... هل أنت تنتظرين... طفلاً؟

في لمح البصر، رأت الفرصة التي قدمها إليها لتوه... يا له من باب للخروج من هذا المأزق، وببطء شديد، ودون أن تقوم بذلك بمحض إرادتها خفضت رأسها. حينئذ سمعت تنفسه يشتد فجأة، ثم بصوت عالٍ قال:

– هذا ما... ما يغير وجه الأمور. هذا ما كنت لأستطيع معرفته. وينبغي أن نعثر على مخرج مختلف. مال عليها وأمسك بيديها.

– "**ديردر**" يا عزيزتي، لا تفكري... لا تتخيلي أبدًا. تذكري ذلك. كان ينبغي أن أطالب بحقوقي عليك عندما عدت إلى "**إنجلترا**". إذًا أصبح لزامًا عليَّ أن أعمل كل ما في وسعي لكي تستقر الأمور. هل أنت متفهمة؟ ومهما حدث لا تقلقي يا عزيزتي. إنك لم تخطئي في كل ما حدث.

ورفع إحدى يديها، ثم الأخرى إلى شفتيه. إثر ذلك وجدت نفسها بمفردها وعيناها مصوبتان إلى قدح الشاي الذي لم تكن قد لمسته بعد.. و – للغرابة – كانت لا ترى فيه سوى شيء واحد: رأت نصًّا مكتوبًا بأحرف مضيئة واضحة، معلقًا على حائط مطلي بالجير. كانت الكلمات تبدو وكأنها تخرج من إطارها وكأنها لكي تلقي بنفسها إلى رأسه معلنة بصوت عالٍ: "بم يفيد ربح العالم.."

نهضت ودفعت ثمن الشاي وانصرفت. عند عودته، وجد "**جورج كروزييه**" يُستقبل بإنذار: ينبغي ألا تتعرض زوجته لأي إزعاج لأي مبرر كان. كان الصداع

النصفي عندها قد تضاعف. هكذا أعلنت وصيفتها.

كانت الساعة التاسعة صباحًا في اليوم التالي، عندما دخل إلى حجرتها. كانت "**ديردر**" جالسة على سريرها. وكانت شاحبة وتبدو منحلة القوى، لكن عيناها كانتا محتفظتان ببريقهما:

- "**جورج**"، عندي أمر أرغب في موافاتك به. شيء مأسوي... قاطعها بشدة:

- إذًا لقد سمعت الخبر. كنت أخشى من أن يسبب لك صدمة.

- يسبب لي صدمة، لي أنا؟

- نعم.. بعد كل شيء، كنت قد تحدثت مع هذا الشاب المسكين. و... ورآها ترفع يدها إلى قلبها وجفناها يتحركان بقوة ثم قالت له بصوت أجش مما جعله - دون أن يدري - ينزعج:

- أنا لم أسمع شيئًا. أخبرني ما هو بسرعة!

- كنت أعتقد أن من الأفضل...

- اذكره لي.

- هناك، عند مزرعة التبغ، هذا الشاب أطلق رصاصة على رأسه. كان هذا الشاب قد سبق له أن أُصيب في الحرب، ويخيل إليَّ أن أعصابه كانت في حالة اضطراب شديد. أنا لا أجد مبررًا لهذا التصرف سوى هذا.

- لقد انتحر... في هذا الهنجر المظلم حيث كان التبغ معلقًا...

كانت تتحدث عن هذا الخبر كما تتحدث عن حدث مؤكد. وكأنها كانت ترى أمامها في هذا الضوء الخافت جثته - ذات الرائحة الشديدة - ملقاة على الأرض ومسدسه مازال في يده.

- نعم. إنه هناك حيث شعرت بوعكة أول أمس. إن هذه الأحداث عجيبة حقًّا. لم تعلق "**ديردر**". كانت ترى صورة أخرى... مائدة وعليها كل ما يلزم لتناول الشاي، وسيدة تحني رأسها لتأكيد أكذوبة.

- ماذا تتوقعين، هذه هي عواقب هذه الحرب التي تسببت في العديد من المتاعب. هكذا قال "**كروزيبه**" وهو يشعل غليونه. وكان صياح زوجته قد جعله ينتفض:

– آه، توقف، توقف. أنا لا أستطيع احتمال هذه الرائحة. ألقى إليها نظرة دهشة:

– لا يا عزيزتي، حاولي أن تهدئي من هذه الحالة الهستيرية. مع كل، لن تستطيعي أبداً التخلص من رائحة التبغ. ستتقابلين معها في كل مكان.

انفرجت شفتاه مظهرة ابتسامة خفيفة يشوبها الألم وتمتمت بكلمات لم يتمكن من معرفتها... الكلمات التي كانت قد اختارتها فيما مضى في مقدمة رثائها لـ"**تيم نيجنت**".

"طالما يضيء النهار، سأتذكر، وفي أحلك الليالي لن أنسى"

واتسعت حدقتا عينيها وهما تتابعان تصاعد حلقات الدخان وهي تكرر بصوت منخفض وبنبرة رتيبة:

– في كل مكان، في كل مكان........

تمت بعون الله

هذه هي أسماء وأرقام الروايات التي يمكنكم طلبها...

سارع في إرسال طلبك !

1	ابنة الفراعنة
2	جريمة الفندق
3	أخطاء القضاء
4	أدلة الجريمة
5	الإرث الدامي
6	أصابع الاتهام
7	امرأة خطرة
8	بيت الأحلام
9	بواعث الجريمة
10	بيت الأهوال
11	التضحية الكبرى
12	الضحية
13	الجثة التي اختفت
14	الجثة الثانية
15	جثة في المكتبة
16	الجريمة الأخيرة
17	جريمة أم
18	جريمة فنية
19	جريمة بلا شهود
20	الجريمة تدق الباب
21	اللغز المثير
22	جريمة عائلية
23	جريمة على ضفاف النيل
24	الجرائم الثلاث
25	جريمة في بيت الطالبات
26	جريمة في الجو
27	جريمة في الصحراء
28	جريمة في قطار الشرق
29	جريمة قتل
30	الجريمة الكاملة
31	امرأة في مأزق
32	الجريمة المستحيلة
33	الجريمة المعقّدة
34	الشاهدة الوحيدة
35	جزيرة الموت
36	جنون الانتقام
37	الحادث
38	الحب الذي قتل
39	الرجل الرابع
40	ذات القناع الأسود
41	ذات الوجهين
42	رجل بلا وجه
43	غانية باريس
44	رصاصة في الرأس